د/ جمال الحسيني أبو فرحة

التاو

ديانة وفلسفة

دراسة تحليلية نقدية



التاو

ديانة وفلسفة



• مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.

• يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

• يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.

• يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

• الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد



مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

د/ جمال الحسيني أبو فرحة

مدرس علم الكلام والمذاهب والأديان

جامعة قناة السويس

التـــــاو

ديانة وفلسفة

دراسة تحليلية نقدية



الكتاب: **التاو ديانة وفلسفة**

الكاتب: **د/ جمال الحسيني أبو فرحة (مصر)**

الناشر: **مركز الحضارة العربية**

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكتروني:

وحدة الكمبيوتر بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٩٨٢١

الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-941-9

أبو فرحة، جمال الحسينى.

التاو.. ديانة وفلسفة/ جمال الحسينى أبو فرحة. – الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠٠٨.

٨٠ ص؛ ٢٠سم.

تدمك: ٩-٩٤١-٢٩١-٩٧٧

١- الديانة القديمة.

٢- الفلسفة القديمة

أ- العنوان ٢٩١,٠٤٢

"بالحد الأدنى من حس الإدراك
أسير على الطريق الرئيسي
ولا أخشى سوى الزوغان عنه
من السهل أن تسير على الطريق الرئيسي
ولكن الناس تفضل الطرق الفرعية المتعرّجة".

لاوتسو

الإهداء

إلى ابنتي الغالية

ندى

راجيا من الله تعالى أن يجعلها من أهل السكينة، ومن دعاة الفضيلة

على نهج خاتم رسله، وسيد خلقه

صلوات الله عليه، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا

مقدمة

في عصر أبى تطوره إلا أن يجتمع بنو آدم مرة أخرى معا، وجها لوجه، ينظر كل للآخر عن كثب؛ ينكر عليه اختلافه عنه مرة، وينبهر به ويقلده أخرى؛ كان لابد ألا يترك الأمر في ذلك لثقافة الأقوى وديانته؛ ولكن للثقافة الأقوى، والديانة الحقة؛ وتوجب على أهل الاختصاص التبصير بالحقائق، والكشف عن الزائف في كل ملة ونحلة؛ ومن ثمة كانت دراستنا التحليلية النقدية هذه عن التاوية ديانة وفلسفة، والتي آمل أن تكون بعد كتابنا عن (الكنيسة المارونية)[1] وكتابنا عن فرقة (أمة الإسلام)[2] - اللبنة الثالثة لموسوعة في الأديان والمذاهب المعاصرة، تصدر تباعا إلى أن تكتمل الموسوعة فتصدر مجمعة مرة أخرى.



(1) وقد صدر بعنوان: "الكنيسة المارونية: الواقع والتاريخ"، عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ٢٠٠٤م.

(2) وقد صدر بعنوان: "أمة الإسلام: من كبرى الحركات الإسلامية بالولايات المتحدة الأمريكية"، عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ٢٠٠٧م.

التعريف:

"الطاوية أو التاوية Taoism" أو "الداوية Daoism" هي في الأصل إحدى مدارس الصين الفلسفية المائة التى ازدهرت في عصر الفلاسفة (من القرن السادس وحتى القرن الثالث ق. م) وكانت خالية من كل عناصر العقيدة، ولم يكن لها أى طابع دينى خاص[1].

ثم أصبحت بعد ذلك إحدى أكبر ديانات الصين الثلاثة القديمة التى ما تزال موجودة حتى الآن، وهى: الكونفوشية، والتاوية، والبوذية؛ وتعتبر الطاوية الثانية من حيث تأثيرها على المجتمع الصيني بعد الكونفوشية.

فقد تحولت التاوية من نظرية فلسفية؛ تقوم على أساس الحدس الصوفى إلى ديانة للخلاص، ومن مسألة تأمل شخصى (وخاص) إلى طائفة دينية منظمة ذات نظام كهنوتى تصاعدى وأتباع؛ على نحو ما كانت عليه البوذية، وما صارت إليه الكونفوشية [2]

وقد اختلف الباحثون المحدثون حول معنى كلمة "طاو" التى تنطق أحيانا "تاو TAO" وأحيانا أخرى "داو DAO"[3].

---

(1) انظر جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٠٧، ٣١٧، ٣١٨.

(2) انظر السابق ص٣٤٤.. وانظر: طاوية – ويكيبديا – الموسوعة الحرة.

وانظر: John B. Noss , Man's Religions, p.332.

(3) راجع تفصيلات ذلك: - محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٣٦ : ٢٣٧.

- إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم جـ ٣ ص ٢٩٩. =

ولكن ليس معنى هذا أن تلك الكلمة كانت في الأصل غامضة أو عويصة، كلا.

فهي تأتى فى اللغة الصينية بمعاني: الطريق، والنهج، والسبيل، وواجب الإنسان، والفضيلة العليا، والغاية المثلى.

ولكن الصعوبة حدثت من المعنى الذى أصبغه الحكيم الصيني القديم "لاو تسو"[1] على هذه الكلمة حين اختارها عنوانا لكتابه الفلسفى ولم يصرح فى تحديده بكلمة قاطعة، بل ترك الباحثين يستنتجون هذا المعنى من المشاكل التى درست فى هذا الكتاب.

فذهب كل منهم مذهبا يناقض الآخر؛ بل إن بعضهم أعلن أن هذه الكلمة غير مفهومة؛ وعليه فإن المذهب النظرى لهذا الحكيم غير مفهوم.

= - خليل أحمد خليل: معجم المصطلحات الدينية ص ٧٣، ٧٤.
- صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، ص٣٢:٣٣.
- فراس السواح: لاو تسو، كتاب التاو ص١١ - ٣٠
- محمد عثمان الخشت: الأديان: تأويل نقدى لفلسفة الدين عند هيجل، ص ١١٢
- هيجل: تاريخ الفلسفة ص ٤٢٨.

C. H. Titterton: Five Great Non Christian Religions, p.96 .

John B. Noss: Man's Religion, p.297 , 315.

(1) أعظم فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس، وينظر إليه عادة على أنه مؤسس الطاوية، ويذكر هيجل أنه ليس مؤسس المذهب وإنما مطوره.
وقد عاش "لاو تسو" فى القرن السادس ق. م، ولكن الذى جرى على فلسفته فى القرون التالية قد جعله هو نفسه لا يستطيع أن يعرف فلسفته إذا قدر له أن يعيش مرة أخرى، إنها شيء أو أشياء أخرى خرافية، ولم تعد فلسفة منطقية.
وشيء من ذلك حدث فى الغرب أكثر من مرة؛ فالفلسفة الروحية لهيجل أصبحت الأساس الأول للماركسية المادية الملحدة، واعتمدت عليها الفلسفة الوجودية الملحدة والوجودية المؤمنة. انظر: أنيس منصور: ديانات أخرى ص ٦٧، ٦٨.
وانظر: هادي العلوي في شرحه لترجمة كتاب التاو، ص٤٢.

وفي رأينا أنه لا خلاف بين هذه المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي الذي نراه مقصود "لاو تسو" من عنوان كتابه الفلسفي المشار إليه؛ وذلك لأن كلمة "التاو" وإن كانت تعني في اللغة الصينية: "الطريق، النهج، السبيل"؛ فهي في الاصطلاح تعني ذلك أيضا، ولكن ليس بالمعنى الضيق المحدود الذي يرى في الطريق خطا يصل بين مكانين محددين، وإنما بالمعنى الشمولي الذي يدل على جوهر صيرورة عمليات الكون والطبيعة؛ إنه الطريق الخفي الذي تطرقه كل حركة، وكل سلوك إنساني في سعيه للتناغم مع منبع الحقيقة فيتحقق الواجب الإنساني، أو الفضيلة العليا، أو الغاية المثلى.

إنه الطريق الطبعي للأشياء، أو هو القانون الذي يحكم الأشياء، أو القوة الفاعلة في الكون من داخله، والنظام الباطني الذي يدفع صيرورة عمليات الطبيعة؛ وهو مفهوم لا يتطابق مع أي مفهوم نعرفه عن الإلوهية المفارقة الخالقة للعالم.

أهم الكتب والرجال:

١)"لاو تسو Lao-Tse" او "Lao-Tzu"[(١)]:

ولد "لاو تسو" فى قرية "كيو جين" بإقليم "تشو" الذي هو الآن فى مقاطعة "أونان" فى سنة ٦٠٤ ق.م، أى فى السنة الثانية من عهد الإمبراطور الحادي والعشرين من أسرة "شو"، وكان اسمه الأصلى "بى يانج".

ولا يعرف أحد عن حياة "بى يانج" سوى القليل.. كل ما يعرفه التاريخ أنه أصبح أمينًا للمحفوظات الإمبراطورية بمدينة "لو يانج" عاصمة مملكة "تساو" وأنه ظل يشغل هذا المركز أعوامًا عديدة.

وقد أتاح له ذلك فرصة الدراسة والبحث حتى نال إعجاب

---

(1) انظر:

- فراس السواح: لاو تسو، التاو ص ١٨.
- محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٣٣ : ٢٣٥ ، ٣٠٠.
- سليمان مظهر: قصة الديانات ص ٢٣٠ : ٢٣١ ، ٢٤٦.
- إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم ج٢ ص ٢٩٨ : ٢٩٩.
- هيجل: تاريخ الفلسفة ص ٤٢٦ : ٤٢٧.
- صادق عبد علي الركابي: لمحات عن أديان العالم ص ٢٢٠.
- محمد عثمان الخشت: الأديان: تأويل نقدى لفلسفة الدين عند هيجل ص ١١٢ : ١١٣.
- أبكار السقاف: الدين في الهند والصين وإيران، ص١٥١.
- أنيس منصور: ديانات أخرى ص ٦٦ : ٦٨.

C. H. Titterton: Five Great Non Christian Religions, p. 95.

Jhon B. Noss, Man's Religion, pp. 312: 313 .

الكثيرين بآرائه فى الفلسفة والدين والحياة.

فأطلقوا عليه اسمه الذي عرف به "لاو تسو" أي "الفيلسوف العجوز" أو "الأستاذ الكبير" أو "الشيخ الفيلسوف".

واستمر الوضع على ما هو عليه فترة من الزمن إلا أن حكام الولاية ازداد بهم السوء واستشرى فيهم الفساد وبعد بهم السفه فعافت نفس الفيلسوف أن يعيش تحت حكم السفهاء، وقرر أن يبرح المكان، وبرغم أنه كان وقتئذ فى الثمانين وقيل فى التسعين من عمره إلا أنه صمم على مغادرة المكتبة الإمبراطورية والهجرة بعيداً ليعيش بعيداً عن الناس، ويقال إنه عندما بلغ حدود الإقليم عرفه حارس الحدود ولم يسمح له بالمرور، وسأله "لاو تسو" لماذا تمنعني من المرور؟ وأجابه الحارس: أنت فيلسوف عظيم يا أستاذي، وقد عمت شهرتك الآفاق دون أن تسجل تعاليمك، فإذا أنت بارحتنا الآن فلن يكون لدينا أي سجل لهذه التعاليم.. وسأله الحكيم: وهل إذا سجلت تعاليمي تدعني أمر؟ أجاب الحارس: نعم يا أستاذي.. وهكذا جلس "لاو تسو" ليكتب الأجزاء المهمة من تعاليمه ويسجلها في كتاب صغير يسمى أحيانا بالكتاب ذي الخمسة آلاف كلمة لصغر حجمه، ويتكون هذا الكتاب من واحد وثمانين فصلاً، وينقسم إلى جزأين هما الطاو - كينج، والطى[1] - كينج، ويشار إليه عادة باسم "طاو - طى - كينج"؛ أى كتاب "العقل والفضيلة"[2] أو

---

(1) والـ "طي" هي الطاو متحققا في الكون وفي الإنسان.. انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو ص ٣٠، ١٤٦.

(2) وهي ترجمة لا تخلو من تسامح لأن الـ "تي" أقرب إلى مفهوم القوة التركيبية الفاعلة في الأشياء، وهو معنى لا تعطيه "الفضيلة".. انظر هادي العلوي في شرحه لترجمته لكتاب التاو، هامش ص ٥٨.

"الطريق ومزاياه"(1).

وعندما أعطى الحكيم هذا الكتاب الصغير لحارس الممر سمح له بالخروج من الإقليم، ومنذ ذلك الوقت لم يسمع به أحد بعد ذلك قط.

وهناك رواية أخرى تقول إنه انسحب أولاً إلى وادي "هان كو" حيث اعتزل الناس وظل عاكفًا على تأملاته الفلسفية، وفى أثناء هذه العزلة جاءه أحد تلاميذه الأوفياء ويدعى "يين سي" وألح عليه فى تأليف كتاب يؤدبه به وتحت هذا الإلحاح من التلميذ الوفي وافق الأستاذ الكبير، وبمجرد انتهائه من كتابة ذلك الكتاب غادر ذلك الوادى الذى عرفه الناس فيه، وانسحب إلى حيث لم يره أحد بعد ذلك.

ويقال إنه ارتحل إلى بلاد الهند وأخذ ينشر تعاليمه هناك وقد تلاقى مع "بوذا" فتتلمذ هذا الأخير عليه وتلقى عنه تلك المعارف الصينية القيمة التي أصبحت فيما بعد أساسًا لمذهبه.

وإن كان ذلك يعارضه أن بوذا لم يولد إلا بعد ميلاد هذا

---

(1) إلا أن أغلب فقرات هذا الكتاب كانت غامضة عسيرة الفهم، ولعل هذا الغموض هو سر التحول الكبير الذى تحولت إليه عقيدة الداوية، فقد تعددت التأويلات، وتأويلات التأويلات على مر العصور وتراكمت حتى أدت فى النهاية إلى شيء جديد لا علاقة له على الإطلاق بتعاليم "لاو تسو". وأقدم نسخة موجودة لهذا الكتاب ترجع لعام ٢٠٠ ق.م ومنذ عام ١٨٥٠م وحتى الآن ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية أكثر من ثلاثين مرة، وترجمه مصطفى ماهر إلى العربية ضمن سلسلة الألف كتاب برقم (٦٤٣) ونشرته مؤسسة سجل العرب عام ١٩٦٧م، كما ترجمه هادي العلوي ونشرته دار ابن رشد ببيروت عام ١٩٨١م، ثم ترجمه فراس السواح، ونشرته دار علاء الدين بدمشق عام ١٩٩٨م. وقد عرف هذا الكتاب بوجه عام ككتاب كلاسيكى فى التصوف يتجاوز حدود الصين.

الحكيم بمائة وخمسة وعشرين عامًا، وإذا صح سفره إلى الهند بعد بلوغه سن الثمانين فلا يمكن أن يصح لقاؤه مع شخص بقى على مولده خمس وأربعون سنة فضلاً عن نشأته واستعداده لتلقى العلم.

وقد ألف أحد أنصار "لاو تسو" كتابًا عنوانه "هوا - هو - كينج" ادعى فيه أن "بوذا" ليس إلا "لاو تسو" فى أحد تناسخاته، إذ إنه ارتحل إلى الهند بعد أن اعتزل الحياة الصينية وهناك عاد بالتناسخ إلى الشباب من جديد واستأنف رسالته باسم "بوذا".

ولعل الدافع وراء مثل هذه الروايات يرجع إلى ما بين "لاو تسو" و"بوذا" من تشابه فى التعاليم من جهة، ولإعجاب الصينيين ببوذا فى الوقت الذى يريدون فيه المحافظة على مكانة زعمائهم الدينيين بل وإعلائها فوق كل غريب من جهة أخرى.

وهناك أيضًا من يقول بأن "لاو تسو" قد مات فى سريره، ومن هؤلاء "تشوانغ تسو".

وشكك بعض الباحثين فى وجود هذا الحكيم أصلاً.. و الدليل الوحيد على وجوده هو ذلك الكتاب الصغير الذي يقال بأنه كتبه قبل اختفائه.

ويعد "لاو تسو" أعظم فلاسفة الصين قبل كونفوشيوس وينظر إليه عادة على أنه مؤسس الطاوية أو فلسفة التاو.

ويذكر هيجل أنه ليس مؤسس المذهب، وإنما مطوره؛ وقد نسجت أساطير كثيرة حول "لاو تسو" منها أنه بغير أب بشرى، وأنه بقى فى رحم أمه (٢٧) سنة، وقيل بل (٨٠) سنة ثم خرج من إبطها الأيسر، وتكلم فى الحال، وكان طاعنًا فى السن؛ ومن ثمة ألّهه أتباعه آخر الأمر.

ويصور الفن الصينى بكثرة لقاء "لاو تسو" و "كونفوشيوس" وهو اللقاء الذى أصيب "كونفوشيوس" بعده بجدية تامة، وقد أعجب "كونفوشيوس" كثيرًا "بلاو تسو" وشبهه بتنين يمتطى متن الرياح والسحب[1].

٢) تشوانغ تسو Chuang Tzu[2]:

وهو من كبار فلاسفة التاوية بل يعتبر المؤسس الثاني لهذه الملة وهو شخصية تاريخية بلا شك عند جميع العلماء وقد عاش ما بين (٣٦٩ - ٢٨٦ ق.م) فى ذلك العصر الذى عرف باسم عصر الفلاسفة وترك لنا مجموعة من الكتب التاوية عرفت باسم كتب "تشوانغ تسو".

وتشكل كتبه أحد محاور ثلاث للفكر التاوي مع كتابات "لاو تسو" Lao Tzu وكتابات "ليه تسو".

---

(1) ويروي المؤرخ الصيني القديم Ssu-ma-ch ien الذي عاش في أواسط القرن الثاني ق.م، عن لقاء جرى بين كونفوشيوس ولاو تسو، عندما جاء كونفوشيوس لزيارة لاو تسو الذي كان يعمل قيّما على مكتبة القصر الملكي في عاصمة مملكة تشاو؛ وقد صاغ كونفوشيوس انطباعه عن ذلك اللقاء المؤثر بالكلمات التالية: "أعرف أن الطيور تحلق في الهواء، والسمك يسبح في الماء، والدبابات تتنقل على اليابسة، وأعرف أن كل ما يدب على اليابسة يمكن اصطياده، وكل ما يسبح في الماء يمكن إمساكه بشص، وما يطير في الهواء يمكن ملاحقته بسهم؛ ولكن هناك التنين الذي لا أعرف كيف يمتطي الرياح ويناطح السحاب فيصعد إلى السماء؛ اليوم رأيت لاو تسو، ولا أستطيع مقارنته إلا بالتنين".. فراس السواح: لاو تسو، التاو ص١٨.

(2) انظر: - جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٢٤: ٣٣٥.
- مانع بن حماد الجهني وآخرون: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢ ص ٧٤٥.
- إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم ج١ ص ٣٦٢.
- جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص٢٥٧.

Jhon B. Noss , Man's Religions. pp. 322: 327.

٣) ليه تسو "Lieh Tzu"[(١)]:

وهو شخصية من الناحية التاريخية تعد موضع شك مثل "لاو تسو" وعاش فى عصر الفلاسفة وتعد كتاباته أحد محاور الفكر التاوي المهمة، ولكن ما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهًا متناقضًا مما يدل على أن بعض الأيدي قد عبثت به، وقد عاش هذا الحكيم فى القرن الخامس قبل الميلاد.

٤) "يين سى"[(٢)]:

من أشهر تلامذة "لاو تسو" الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته، وواصلوا سلسلة بحوثه، فكتب بحوثًا قيمة حول نظرية المعرفة، ونقد العقل البشرى، وأبان قصوره عن إدراك المطلق.

٥) لوهيوشنغ[(٣)]:

أحد أهم مصلحي الديانة الطاوية، وقد عاش ما بين (٤٠٦ - ٤٧٧)م.

---

(1) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٢٤: ٣٢٥.
: محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٤١.
C.H. Titterton: Five Great Non Christian Religions, p.96.

(2) انظر: محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٤١.

(3) انظر: مانع بن حماد الجهني وآخرون: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢ ص ٧٤٦.

٦) تشانج تاو لينج[1]:

فى عام ١٤٢ م ظهر "تشانج طاو لينغ" وزعم أنه قد اكتشف شرابًا يجعل الناس يحيون حياة الخلود وسمى هذا الشراب "إكسير الحياة".

وبدأ الداويون على الفور يعبدون هذا الرجل الذي اخترع "إكسير الحياة" وظلت سلالته مقدسة لديهم حتى اليوم وعرف هو وذريته باسم "المعلمين السماويين" ويسمى زعيمهم وحفيد "تشانج تاو لينج" باسم الإمبراطور اللؤلؤي وهو يحكم أتباعه بسلطة ملك.

(1) انظر: السابق: ص ٧٤٥.
: سليمان مظهر: قصة الديانات ص ٢٤٣ : ٢٤٤.

الأصول والمبادئ

المشروع المعرفي:

يقول لاو تسو:

- "تخل عن المعرفة تدع الهم والقلق"[1].
- "لكي تعرف لا تحتاج إلى تعلم ودراسة، التعلم والدراسة يبعدانك عن المعرفة"[2].

على أن المقصود بالمعرفة التي يدعونا لاو تسو إلى التخلص منها هي ما يلي[3]:

- المعرفة بفقه المتفقهين وحذلقة المشرعين لما سيأتي بيانه في مبحثي الأخلاق والسياسة.
- البحث الميتافزيقي الفلسفي في مسائل ما وراء الطبيعة اعتماداً على المنهج العقلي في البحث والبرهان، فمثل هذا البحث لا طائل من ورائه بالنسبة للتاوي؛ لأنه لا يرى في العقل المنطقي الوسيلة المناسبة للخوض في مثل هذه المسائل؛ بل الأحرى بها أن تترك لملكات الإنسان الحدسية وعرفانه الباطني.

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٤٥.. على أن اعتمادنا في كل النقول - في دراستنا هذه - من كتاب التاو، فسيكون على ترجمة فراس السواح؛ لدقتها ووضوحها، سوى ما نص عليه وهو قليل.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٩٤

(3) انظر فراح السواح: لاو تسو، التاو، ص١٦٦ : ١٦٧.

- البحث التجريبي الذي يهدف إلى الكشف عن أسرار الطبيعة؛ ويأتي الشك التاوي في هذا المنهج من كونه يتبع أسلوب التجزئة والتحليل؛ فنحن عندما ندرس ظاهرة ما من الظواهر الطبيعية بهذا المنهج نقوم بعزلها عن محيطها وتجزئتها وتحليلها، وكأن هذه الظاهرة تحدث بشكل مستقل عن بقية ما لا يحصى من الحدوثات؛ ومن ثمة لا نحصل سوى على معرفة نسبية، وكلما استطعنا ربط مجموعة أكبر من الأحداث كلما تغيير فهمنا للحدث موضع الدراسة؛ وذلك أن "الآلاف المؤلفة تنشأ في توافق معا" كما يقول لاو تسو[1].

على أنه يجب التوكيد هنا على أن التاوية ليست ضد المعرفة العملية التي تتيح للإنسان التعامل مع عالمه اليومي وتطوير أفضل الأساليب التي تحقق له التكيف التام مع بيئته، فهذه المعرفة العملية تختلف عن المعرفة النظرية التي تستخدم المناهج العلمية في سبيل فهم وكشف أسرار الطبيعة؛ فالحقيقة ليست موضوعا للمعرفة التقليدية، ولا تستطيع اختراقها متسلحًا بالمناهج العقلية التجريبية.

إن الخبرة التاوية بالعالم[2]، هي أقرب إلى النتيجة منها إلى المقدمة، وإن ما يحصله التاوي من هذه الخبرة، ليس خطوة أولى في سلسلة خطوات من التفكير المنطقي نحو تحقيق فهم عام متكامل، بل هو المقدمة والنتيجة معا، في خطوة أو قفزة واحدة، التماعة حدسية تضعك أمام الكل دفعة واحدة فيذوب الفارق بين

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة:٣٧.

(2) انظر فراح السواح: لاو تسو، التاو، ص٢٠١ : ٢٠٢

العارف وموضوع معرفته"[1].

فإذا أردنا التشبيه الحسي، قلنا إن هذه الالتماعة الحدسية تشبه إلى حد كبير انفجارنا بضحكة عالية تهز كياننا عقب الاستماع إلى نكتة، نحن نفهم النكتة في كليتها ودون بذل جهد في تحليلها وتفسيرها وصولا إلى إدراك الطرافة فيها.

من هنا يقول لاو تسو: "عندما يسمع التلميذ النجيب بالتاو، يعطيه كل دأبه واهتمامه، عندما يسمع التلميذ العادي بالتاو، يعطيه اهتمامه بين الحين والآخر، عندما يسمع التلميذ الغبي بالتاو يضحك بصوت عال؛ إذا لم يكن هناك ضحك فإن التاو لن يكون ما هو عليه"[2].

ومعنى هذه الفقرة أن التلميذ النجيب المتمرس بالتفكير المنطقي يعمل في التاو بحثا وتمحيصا، على أنه مفهوم فلسفي يتوجب عليه دراسته من أجل استيعابه، أما التلميذ العادي الذي لم تفسد المعارف التقليدية كل تلقائيته، فإنه يتعامل مع التاو بطريقة توسط المنطق والحدس معا؛ وأما التلميذ الغبي، ويقصد به لاو تسو الإنسان الذي لا يعول على المعارف التقليدية فإنه يضحك بصوت عال؛ ومن هنا كانت عبارة لاو تسو: "إذا لم يكن هناك ضحك، فإن التاو لن يكون ما هو عليه" أي أننا إذا لم ندركه بحدسنا ودون توسيط المنطق التحليلي، فإننا لن ندركه أبدا.

---

(1) فالحكيم التاوي يستجيب لكل شيء دون أن يعمل على تخزينه؛ فهو كالمرآة يعكس العالم في لحظة بعينها وبطريقة تنأى عن صورة العالم المنقضية أو الصورة التي لم تحدث بعد.. انظر: صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، ص١١١.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة:٩٠.

وهذا المقطع من كلام لاو تسو يفسر لنا المغزى الكامن وراء تمثال بوذا الضاحك، المعروف بأكثر من وضعية وشكل في الفن الصيني والياباني، ففي مقابل الوضعية التقليدية التي تمثل بوذا في حالة الاستغراق الباطني العميق، نراه هنا وقد انفجر بضحكة صاخبة برزت فيها أسنانه، واندفع رأسه إلى الوراء، وكأن الوجود نكتة ما عليك سوى الإصغاء إليها ليباغتك السر، هذه الصيغة لتمثيل بوذا هي من نتاج بوذية "التشي - آن"، وريثة التاوية وسليلتها الشرعية، فلقد تبنت بوذية"التشي - آن" طريقة الاستثارة المفاجأة وصارت ركنا أساسيا من أركانها، كما انتقلت إلى بوذية الزن وهي الشكل الياباني للتشي - آن الصينية.

إن الاستثارة بالمفهوم التاوي أشبه بقفزة فوق خندق عميق، عليك أن تقوم بها دفعة واحدة، فإما أن تصل إلى الطرف الآخر وينفتح عقلك على الحقيقة أو تبقى في مكانك؛ وليس هناك تعاليم نظرية مكتوبة يتوجب على المريد دراستها وفهمها ولا قواعد مرسومة ولا تمرينات مقررة، وتقتصر مهمة المعلم على الأخذ بيد التلميذ ليكتشف الحقيقة وحده، ومن خلال تجربة خاصة يعانيها في أعماق ذاته؛ وذلك على عكس الاستثارة في المفهوم البوذي؛ حيث يتم تدريب المريد على تحقيقها خطوة خطوة وفق تمرينات يتعلمها من أستاذه.

ويقدم لنا شوانغ تسو عدة حجج يبرهن بها على المشروع التاوي المعرفي تنطلق مما يلي[1]:

- الحجة التي تنطلق من نسبية التمييزات.

---

(1) انظر: جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص ٣٦٨: ٣٧٥.

- الحجة التي تنطلق من تكامل الأضداد.
- الحجة التي تنطلق من المنظورات.
- الحجة التي تنطلق من نزعة الشك العامة.

تذهب الحجة الأولى، وهي الحجة التي تنطلق من نسبية عمليات التمييز، إلى أن الأحكام المتعلقة بالقيم وموضوعات التذوق هي أحكام ذاتية، وبالتالي فهي نسبية؛ ويمكن النظر إليها على أنها تافهة ولا قيمة لها.

وهذه الحجة موجهة، في المقام الأول ضد الكونفوشيين والموهيين[1]، الذين ذهبوا إلى القول بأن لديهم معرفة أصيلة بما هو صواب وبما هو خطأ، ولكنهم اختلفوا في كل نقطة على وجه التقريب. يقول شوانج تسو: "لقد نشأت الخلافات بين الكونفوشيين والموهيين، ونظرت كل مدرسة إلى ما نظرت إليه المدرسة الأخرى على أنه صواب، باعتباره خطأ".

ولا يمكن أن يكون هناك صواب مطلق، وخطأ مطلق، لأن الخطأ والصواب نسبيان ومرتبطان بالظروف المتعلقة بالأفعال موضع المناقشة، فليس هناك معرفة حقيقية بالصواب والخطأ.

وقد تتم المجادلة، بالطبع، ضد شوانج تسو بأنه إذا كانت كل المعرفة نسبية بصورة خالصة فكذلك الحال إذن بالنسبة لهذه المعرفة أي المعرفة بأن كل معرفة نسبية.

---

(1) والموهية: فلسفة صينية قديمة زعيمها مو تسو Mo Tzu (٤٦٨ -٣٧٦ ق.م)، وكانت المنافس القوي للكونفوشية قبل أن تنتزع منها التاوية هذه المكانة؛ وعاد الاهتمام بها في العصر الحديث نظرا لاحتوائها على أفكار سارت في تواز مع تعاليم المسيحية والماركسية في آن واحد.. راجع: السابق، ص٣٢٢، ٣٣١

وتشير الحجة الثانية، وهي الحجة المنطلقة من الطابع التكاملي للأضداد إلى أن أي مفهوم يفترض على نحو منطقي نفيه أو سلبه، وأنه دون نفيه، أو ضده، فإن المفهوم لا يمكن أن يوجد.

والمراد بهذه الحجة هو إيضاح أن الإيجاب والسلب هما طريقتان مختلفتان في النظر إلى الشيء ذاته.

يقول شوانج تسو: "عندما تكون هناك حياة فهناك موت، وعندما يكون موت تكون هناك حياة، وحين يوجد إمكان فثمة استحالة، وحين توجد استحالة فثمة إمكان، وبسبب الصواب هناك خطأ، وبسبب الخطأ هناك صواب".

ويقول لاو تسو: "يرى الجميع في الجميل جمالا لأن ثمة قبحًا، يرى الجميع في القبح قباحة لأن ثمة جمالا، الوجود واللا وجود ينجم بعضهما عن بعض، الصعب والسهل يكمل بعضهما بعضا، الطويل والقصير يوازن بعضهما بعضا، العالي والمنخفض يسند بعضهما بعضا، الصوت والصمت يجاوب بعضهما بعضا، القبل والبعد يتبع بعضهما بعضا"[1].

وفي موضع آخر يقول: "اعجن العجين وشكله إناء، وانظر كيف يتيح لك اللا شيء في داخله استعمالا، اصنع أبوابا ونوافذ وارفع غرفة، وانظر كيف يقدم لك اللا شيء في داخلها سكنا، ما نحصل عليه هنا شيء، ولكن بفضل اللا شيء يكتسب الشيء وظيفته"[2].

وبالنسبة لهذه الأزواج من المفاهيم فإن وجود أحدها يفترض الآخر بصورة مسبقة، وإزالة أحدها تعني إزالة الآخر.

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرتان: ٤: ٥.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٢٧.

وقد يعترض معترض فيقول: إذا تجنب المرء المفاهيم الوصفية وركز على المفاهيم الجوهرية فليس من الواضح بحال أن المفهوم سيكون ممكنا فقط إذا عارضه مفهوم آخر؛ فمن خلال أي المفاهيم يتعين معارضة مفاهيم: الإنسان، والدار، والكلب... إلخ، لكي تعمل كمفاهيم؟

غير أنه وفقًا لحجة شوانج تسو فإنه حتى مفهوم مثل "كلب" يشتمل ضمنًا على الأقل على مفهوم "لا كلب" ذلك أنه إذا لم يوجد مفهوم "لا كلب" فإن مفهوم "كلب" لا يمكن أن يستخدم على نحو متميز؛ بمعنى أنه سيكون من المستحيل تحديد ما يدعى بكلب وما لا يدعى به.

ولكن من الشروط الضرورية لاستخدام مفهوم ما بصورة سليمة القدرة على التمييز بين ما يشير إليه المفهوم وما لا يشير إليه؛ وهكذا من خلال المثال الراهن فإن وجود مفهوم "كلب" يتضمن معرفة ما ليس بكلب، أو أن لديك فكرة عما هو "لا كلب" وطريقة التفكير نفسها يمكن أن تستخدم مع أي مفهوم جوهري، فإذا كان لديك فكرة عن أي شيء فإن ذلك يفترض بصورة مسبقة قدرتك على التمييز بين ذلك الذي تشير إليه الفكرة وذلك الذي لا تشير إليه، وهذا يتضمن معرفة ما ليس عليه المفهوم؛ وهكذا ندرك أن مفهوم شيء ما، هو على الدوام مرتبط بما ليس عليه ذلك الشيء.

وتشير الحجة الثالثة، وهي الحجة التي تنطلق من المنظورات إلى أنه من الواضح أن الشيء الواحد يبدو مختلفًا بالنسبة لمختلف الناس إذا كانت منظوراتهم مختلفة إليه، وكذلك يبدو لي الشيء نفسه مختلفًا إذا ما غيرت منظور رؤيتي إليه؛ أو إذا ما اختلفت قدرة

حواسي المختلفة، فلا شك أنني سأدرك الأشياء بصورة مختلفة.

والمغزى من وراء هذا الكلام هو بيان أن الشيء الواحد له مظاهر عديدة تتوقف على مَن يقوم بإدراكه؛ فأي المظاهر هو المظهر الحقيقي الصحيح؟.. هل ما تدركه الدودة أو القطة هو نفسه ما يدركه الإنسان؟.. وهل ما يجري إدراكه الآن هو نفسه ما جرى إدراكه منذ دقيقة؟

ومن وجهة نظر "شوانج تسو" أن هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها، ومن ثمة فكل شيء هو ما هو عليه، وليس شيئا آخر، وما هو عليه، مستقل عن الكيفية التي يبدو بها لأي شيء أو لأي شخص.

وهو ما يعبر عنه لاو تسو بقوله: "انظر إلى الشخص من خلال الشخص، انظر إلى العائلة من خلال العائلة، انظر إلى القرية من خلال القرية، انظر إلى الأمة من خلال الأمة، انظر إلى المملكة من خلال المملكة، كيف أعرف أن العالم على هذه الشاكلة بواسطة هذا"[1].

وبناء على ذلك فإنه من وجهة نظر كل من "لاو تسو" و"شوانغ تسو" تصبح الأخلاق والمعرفة نسبيتان بصورة خالصة؛ فإذا كان كل شيء ينظر إليه من وجهة نظره الخاصة فإن الصواب والخطأ يختفيان؛ وهذا هو على وجه الدقة ما يوصي به شوانج تسو بقوله: "فلتكن لك وجهة نظر متعالية ترى كل شيء من منظوره السليم، من وجهة نظره الخاصة؛ وعندئذ ستكون هناك وحدة مع الكون، وستكون هناك استنارة، وسيتم العثور على التاو في كل شيء".

ويعبر لاو تسو عن هذا الموقف المعرفي بكلمات قليلة يقول فيها: "بين الـ "نعم" والـ "لا" هل هناك من فرق؟ بين الخير والشر هل بعيدة

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٢٤.

المسافة؟ ما يخافه الآخرون عليّ أن أخافه أيضا! إنه لأمر سخيف"[1].

ويستطرد شوانج تسو في بيان وجهة نظره فيقول: "لا تعرف الأشياء أنها (ذلك) بالنسبة للأشياء الأخرى، وإنما هي تعرف حسب ما تعرفه هي نفسها". ويقول كذلك: "ذو العقل وحده يعرف كيف يحدد كل الأشياء باعتبارها واحدًا"، وهذا المعنى يتم تصويره بقصة الفراشة؛ يقول "شوانغ تسو": "ذات مرة حلمت أنا شوانج تسو، بأنني كنت فراشة، وكنت سعيدًا باعتباري فراشة، وكنت أعي أنني مسرور تمامًا بنفسي، ولكنني لم أكن أعرف أنني تسو، وفجأة استيقظت، وهنالك عرفت بجلاء أنني تسو، ولم أدر ما إذا كان تشو يحلم بأنه فراشة أم أن الفراشة هي التي كانت تحلم بأنها تسو".

إن مشكلة شوانج تسو هي مشكلة التيقن من أنه يحلم أو أنه يجري الحلم به؛ وهو لا يستطيع العثور على معايير لا سبيل إلى الشك فيها يمكن أن تستخدم في التمييز بين كون المرء متيقظًا وكونه حالمًا.

ومغزى الحجة المطروحة هنا هو أنه ليس بمقدورنا أن نعرف حقًا ما هو الشيء في ذاته قط[2].

تمضي حجة شوانج تسو الرابعة، وهي الحجة التي تنطلق من نزعة الشك قدمًا إلى القول بأن السؤال: "هل الأمر كذلك حقًا؟" لا

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرتان: ٤٦: ٤٧.

(2) انظر المزيد من التفصيلات: جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٢٣: ٣٣٦.

: إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم ج١ ص ٢٦٢.

John B. Noss: Man's Religions, pp. 315: 322. :

يمكن الإجابة عنه قط.

لنفترض - على سبيل المثال - أنه يقال إن "س" أحمر؛ والرد السريع هو "كيف يمكن إيضاح أنه أحمر حقًا؟" ومكمن الصعوبة في البرهنة على أن هذا القول صحيح هو أن هذا القول لا يمكن مقارنته مع ما هو الحال عليه بالفعل، لأن أي قول حول ما هو الحال عليه بالفعل سيكون عرضة للشكوك ذاتها تمامًا كالقول الأصلي، وما تمس الحاجة إليه هو معيار للحكم على المعيار الأول، ومعيار للحكم على المعيار الثاني.. إلخ، وهكذا إلى ما لا نهاية.

الميتافيزيقا:

يقول لاو تسو عن التاو:

- "هنالك شيء بلا شكل، موجود قبل السماء والأرض، صامت وفارغ، قائم بنفسه لا يحول، يتخلل المكان ولا ينفد، إنه بمثابة الأم لهذا العالم، لا أعرف له اسمًا فأدعوه التاو، لا أعرف له وصفًا فأقول العظيم، عظمته امتداد في المكان، الامتداد في المكان يعني امتدادا بلا نهاية، الامتداد بلا نهاية يعني العودة إلى نقطة المبتدى"[1].

- "خفي وغامض ولكنه حاضر أبدا، لا أدري ابن من هو، ولكنه سلف الآلهة"[2].

- "التاو واسع يسري يمينا ويسارا وفي كل مكان، جموع المخلوقات تعتمد عليه في وجودها ولا يدعي سلطانا، يكمل عمله ولا يدعي فضلا، يطعم المخلوقات ويكسوها ولا يدعي امتلاكا، بلا رغبات أبدا، يمكن أن ندعوه الصغير، ولأنه لا يدعي سلطانا عندما تدير الجموع وجهها إليه، يمكن أن ندعوه العظيم، لأنه لا يحاول أن يجعل من نفسه عظيما، فقد أفلح في أن يكون عظيما"[3].

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٥٦.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٣.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٧٦.

- "إن إجلال التاو.......ليس فرضا من قبل أي سلطة، ولكنه من طبيعة الأشياء، التاو يهبهم الحياة ويرعاهم، ينشئهم ويرزقهم، يربيهم حتى يبلغوا الرشد، يؤويهم ويطعمهم، يعينهم ولا يقتضي عرفانا، يدبر شؤونهم ولا يدعي سلطانا"[(1)].
- "التاو ليس من شيمته الفعل، ولكنه لا يترك شيئا بحاجة إلى إتمام"[(2)].
- "بعيد بلا مسافة، قريب بلا مسافة، لا تستطيع له ضرا ولا نفعا، الإعلاء من شأنه لا يعليه، والخفض من شأنه لا يؤذيه، ولهذا هو مهوى أفئدة الجميع"[(3)].
- "التاو كامن في صميم الأشياء كلها، الصالحون يقدّرونه ويوقرونه، والطالحون يتلقون حمايته ورعايته"[(4)].
- "التاو واسع بلا حدود، ليس كمثله شيء، لأنه بلا حدود لا يماثله شيء، لو ماثله شيء لغدا صغيرا منذ أمد طويل"[(5)].
- "السماء والأرض باقيتان، لماذا تبقى السماء والأرض؟ لأنهما لا تشعران بوجودهما"[(6)].. وتعبير السماء والأرض هنا إشارة إلى التاو الظاهر من خلال قوتيه الين واليانغ كما سيأتي بيانه.

يتضح من النصوص السابقة أن الفارق بين مفهوم التاو ومفهوم الإله الخالق، هو أن الإله أنتج العالم عن طريق الخلق الإرادي،

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرات:١١٤: ١١٦.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة:٨١.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة:١٣٠.

(4) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٤٣.

(5) لاو تسو: التاو، الفقرة:١٦٣.

(6) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٨.

بينما أنتج التاو العالم عن طريق الخلق غير الإرادي؛ الإله خلق العالم بواسطة الفعل أما التاو فبواسطة اللا فعل، والتاو لا يشعر بوجوده الخاص؛ لأن وجوده هو عين وجود الظواهر، كما أنه لا يعرف كيف صدر الكون عنه؛ لأنه لا يتمتع بمعرفة خاصة به"[١].

وقد ذهب "لاو تسو" إلى نوع من الحلول، فقال: إن كل شيء مركب من عنصرين: "طاو Tao" وهو المبدأ الأول و "كى Ke" وهى مادة لطيفة يتحد بها الطاو، فيتطوران إلى جميع صور الموجودات، حتى ينتهي التطور إلى الراحة القصوى أو نيبان Nibban وهو (النرفانا الصينى) ويعود كل شيء إلى المبدأ الأول.

وفى الطاوية ما يشبه التثليث المسيحى؛ ويشير هيجل إلى مقطع شهير فى كتاب "لاو تسو" يثير كثيرا من التساؤلات، ولا سيما من قبل المبشرين المسيحيين، فلقد اعتبر بعض المبشرين هذا المقطع محتويًا على مفهوم قريب من مفهوم التثليث المسيحي"[٢].

يقول فيه "لاو تسو": "التاو أنجب واحدًا، الواحد ... الثاني، الثاني أنجب الثالث، الثلاثة أنجبت الآلاف المؤلفة، الآلاف المؤلفة تحمل الـ "ين" على كتفها، وتعانق الـ "يانج" بالذراعين، الآلاف

---

(1) انظر: فراس السواح: لاوتسو، التاو، ص ١٣٩.

(2) انظر: - محمد عثمان الخشت: الأديان: تأويل نقدي لفلسفة الدين عند هيجل، ص ١١٢: ١١٥.

- هيجل: تاريخ الفلسفة ص ٤٢٧: ٤٢٩، محاضرات في فلسفة الدين: العبادة وديانة الطبيعة، ص ١٧٦.

أما مفهوم التثليث المسيحي عند معظم الفرق: الكاثوليك، والبروتستانت، والأدفنتست، والأرثوذكس؛ فهو: "إله واحد ذو ثلاثة أقانيم متساوين في الجوهر متمايزين في الخواص"؛ فصدق الله العظيم القائل في كتابه الكريم: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ﴾ (التوبة: ٣٠).. وإن أنكرت التثليث بعض الطوائف المسيحية كشهود يهوه حديثا، والنسطورية قديما.

المؤلفة ناتج ت٠ماذج القوتين"[١].

ويعد عصر "لاو تسو" بعشرات السنين عندما تطورت التاوية وأصبحت ديانة دخلتها التأثيرات المختلفة من البيئات المحيطة بها أصبح الداويون يعبدون كثيرا من الحيوانات كبنات آوى.. والثعابين ...الخ.

وأخيرا ذهب تلامذة " لاو تسو" إلى القول بأن أستاذهم قد أصبح هو الله نفسه[٢].

ولم يكتف الداويون بكل هذه العبادات فراحوا يعتقدون فى أشياء أخرى غريبة؛ فآمنوا بأن هناك رمادا معينا، ونوعا من الحجارة والكتابة له قوة أكبر من السحر.. إذا حمله المرء فإن الرصاص لا ينفذ فيه.. بل إن حامله لا يمكن أن يغرق في الماء قط..كما لا تستطيع النار أن تحرقه[٣].

إلا أن تطور التاوية لم يكن دائما في الاتجاه السلبي؛ فقد أقرت مثلا عقيدة الثواب والعقاب التي لم يكن لها في التاوية أثر قبل اتصالها بالبوذية.

أما بالنسبة لنظرية الخلق أو(الين واليانج): فملخصها أن الأصل في الكون كان "كلا" واحدا لا مرئيا ولا شكل له وليس له بداية ولا نهاية؛ ثم تكونت منه ثنائيات متوازنة ليستمر الكل واحدا، أولها ثنائية الوجود المتجسد في المادة ونقيضه غير المتجسد

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرتان: ٩٣: ٩٤.. وما يقصده لاو تسو بالواحد هو اليانج، والثاني هو الين، والثالث هو الوحدة الجامعة لهما.. راجع فراس السواح: لاو تسو، التاو، ص ٢٠٦.. وسيأتي تفصيل الكلام عن اليانج والين في هذه الدراسة بعد قليل.

(2) انظر: هيجل: تاريخ الفلسفة ص ٤٢٨.

(3) انظر: سليمان مظهر: السابق ص ٢٣٦.

(الأثير)؛ وأعظم الثنائيات المتجسدة اليانج والين؛ ويذكر كتاب التغيرات – والذي يعد أهم الكتب الصينية التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون - أن الخلق يتم عن طريق عاملين تتألف منهما ظواهر الكون بأسره هما: (ين yin) و(يانج yang) ومعنى (يانج) الحرفي هو: الضوء، أو الشمس؛ أما (ين) فيعني: الظل، أو القمر؛ واليانج إيجابي، والين سلبي؛ الأول ذكر، والثاني أنثى؛ الأول سماوي، والثاني أرضي.

وعن طريق الاتحاد بين السماء والأرض، أو بين عاملي الذكورة والأنوثة؛ تنشأ الموجودات في هذا الكون الفسيح؛ فثنائية "اليانج" و"الين" ثنائية تكاملية؛ فلا قيام لأحدهما بمعزل عن الآخر، والكل يتخذ معناه من الآخر؛ فلا نور بلا ظلام، ولا خير بلا شر، ولا حياة بلا موت؛ والكل في حالة تناوب تلقائي؛ فإذا بلغ "اليانج" أعلى قمة له في الارتفاع تحول إلى "الين" حتى إذا بلغ الين أعلى قمة له في الانخفاض تحول إلى "اليانج" مرة أخرى؛ وهكذا إلى ما لا نهاية في دورات دائبة؛ ففي كل مظهر لليانج بذرة للين تنمو في أعماقه والعكس صحيح؛ وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه وتناسقه[1].

---

(1) انظر:صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص ٢٤: ٢٧.
: فراح السواح: لاو تسو، التاو، ص ١٠:٩، ١٤٣.
: صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، ص١٩ :١٨.
: سهيل ذكار: المعجم الموسوعي للديانات، ٩٤١/٣
ويلفت نظرنا هذا الاختلاف الواضح بين مفهوم التغير عند الصينيين ومفهومه عند هيراقليطس الأفسوسي؛ والذي ينسب إليه أفلاطون في محاورة (كراتيل) عبارة: "كل شيء يجري". (صحيح أن الكتاب والفلاسفة اليونان القدامى، قد أعلنوا أن كل شيء يتحرك ويتغير، إلا أن هيراقليطس امتاز بأنه صاغ عام ٥٠٠ قبل الميلاد – وهو نفس العام الذي اتخذ فيه كتاب التغيرات شكله الحالي - وبشكل بالغ الحزم مسألة الحركة والتغير في كل الأشياء حتى النهاية)؛ فهيراقليطس قد =

وتسري هذه الثنائية في كل شيء؛ فجلد الإنسان يغلب عليه اليانج وداخله يغلب عليه الين، وهكذا كل أعضائه الذاخلية خارجها يغلب عليه اليانج وداخلها يغلب عليه الين، وكذلك الأغذية وسائر الموجودات يغلب عليها إما الين وإما اليانج.

وطبقا للتاوية لابد للإنسان أن يسعى لإيجاد التوازن بين هذه الثنائيات في حياته ليصل للسعادة والاتحاد بالكل، يساعده في ذلك تأملات خاصة ورياضات روحية، وتمارين استمداد الطاقة الكونية (الوجود غير المتجسد المنبثق عن الواحد)، وأنظمة حمية غذائية.

وهذه النظرة إلى هذه الثنائيات تختلف عن النظرة إليها في الفكر الثنوي سواء: الشرق أوسطي أو الغربي الذي ينظر إليها على أنها ثنائيات ينفصل أحد شقيها عن الآخر، ويباينه تماما.

إلا أن الين واليانج بحكم تعارضهما لا يمكنهما إنتاج نفسيهما؛ ومن هنا يتبدى أهمية الإسهام الذي قدمه "لاو تسو" بقوله: إن التاو هو أساس التفاعل بين الين واليانج ومصدر كل من الوجود والعدم[1].

= اعتقد بأن الحياة حركة تتكشف من خلال صراع "الأضداد" وآمن بانسجام نظام الكون بفعل "اللوجوس" – الكلمة أو الله - وفي مقابل هذا نجد أن الصينيين قد آمنوا بأن السكون ليس نقيضا للتغير، بل يعتبر السكون والحركة واجهتين للتغير. وإذا كان التغير وفقا للمفهوم الصيني هو مبدع جميع الموجودات فإن "اللوجوس" عند هيراقليطس، هو القوة المحركة لكل تغير في الأشياء؛ "فكل شيء يجري بالتوافق مع هذا "اللوجوس"؛ وإذا كانت حركة التغير عند هيراقليطس تتجه إلى الأمام، فإن نفس الحركة وفقا للمنطق الصيني تتجه اتجاهًا دائريًا شبيهًا باللولب، فهي ترجع إلى نقطة بدايتها مما يحفظها من التشتت والضياع الذي تتعرض له الحركة ذات البعد الواحد.

انظر د.صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني ص ٢٤ : ٢٧

(١) فإذا كان كل شيء يجري كماء النهر؛ فالتغيير إنما يحدث على أرضية ثابتة غير متغيِّرة؛ وإلا لما كان هناك نظام كوني، هذه الأرضية الثابتة هي ما يسمونه بـ"التاو"؛ فهو - في عقيدتهم - الوحدة الكامنة خلف الكثرة المتبدية؛ ومن =

وقد تم تمثيل قوتي اليانج والين بصريًا على شكل دائرة تحتوي على مساحتين: واحدة مظلمة، والأخرى مضيئة: فالدائرة هي المبدأ الأول قبل ظهور الموجودات، وهي القاع الكلي الثابت قبل ظهور التغييرات؛ لأنه لابد لكل متغير من مرجعية ثابتة تعمل على إظهاره، وتكون بمثابة الخلفية التي تنتظم فوقها المظاهر المتحولة وتتبادل فيما بينها العلائق، أما المساحتين: المظلمة منهما، والمضيئة؛ فقد صورتا في وضع دوراني يدل على التناوب الأبدي بينهما، وهو التناوب الذي أظهر الموجودات من حالة اللا تمايز والسكون إلى عالم الشكل والحركة؛ إن الخط الفاصل بين المساحتين داخل الدائرة يعبر عن ظهور الأقطاب إلى حيز الوجود؛ فهذا الخط هو الذي أحدث شرخًا في الفراغ المتماثل وقسّمه إلى أعلى وأسفل، إلى يمين ويسار، إلى أمام وخلف، وانحلت الوحدة السابقة إلى مظاهر ذات قوى متعارضة ومتجاذبة في الآن نفسه، وبما أن اليانج لا يتجلى في حالته الصرفة، ولا الين كذلك؛ فقد صوّر القسم المظلم من الدائرة وفيه بقعة صغيرة بيضاء، وصوّر القسم المضيء وفيه بقعة صغيرة سوداء؛ لأن في كل إيجاب بعضًا من السلب، وفي كل سلب بعضًا من الإيجاب؛ وتدعى هذه الدائرة بدائرة التاو، وتتخذ مكان البؤرة في التفكير الصيني[1].



دائرة التاو

= ثمة فمن أدرك التغيّر ومعانيه ثبت قلبه على المبدأ غير المتغيّر.

انظر: فراس السواح: لاو تسو، **التاو**، ص ١٧:١٦.

(1) انظر: السابق، ص ١١، ١٢٢

الأخلاق:

يقول لاو تسو: "رجل الفضيلة لا يشعر بفضيلته، ولذا فإنه رجل فاضل، البعيد عن الفضيلة مشغول بها على الدوام، ولذا فإنه رجل غير فاضل، رجل الفضيلة لا يفعل، ولكنه لا يترك شيئا بحاجة إلى إتمام، البعيد عن الفضيلة يفعل، ومع ذلك يترك أمورا بحاجة إلى إتمام"[1].. والمعنى أنه عندما تؤدي عمل الخير عن سابق تصميم وتدبر، ثم تشعر بعد ذلك بالرضا عن نفسك وبالسعادة لأنك إنسان خير؛ فإنك إنسان غير فاضل بالمعيار التاوي؛ لأن الخير في هذه الحالة لا ينبع من ذاتك الطبيعية، بل من الأنا المشغولة بنفسها وبالرضا عن أعمالها؛ أما عندما يتصف عملك بالخير في كل خطوة تخطوها من دون أن تشعر بأنك تؤدي عملا خيرا، أو يتملكك إحساس بالرضا عن نفسك، واعتزاز بعملك؛ فأنت إنسان فاضل حقًا.. إن القيام بعمل الخير دون قصد أو تصميم على إتيان الخير هو شكل من أشكال اللا فعل، أما القيام بعمل الخير عن قصد وترقب نتائج مادية كانت أو معنوية فهو شكل من أشكال الفعل؛ والفضيلة الناجمة عن الفعل تبقى غير كاملة، أما الفضيلة الناجمة عن اللا فعل فهي الفضيلة الكاملة[2].

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٨٢.

(2) انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو ص١٩٦

إن التاوية في مبادئها السلوكية الدنيوية في هذه المسألة أراها صالحة ومصلحة بدرجة أو بأخرى لطائفة من البشر تتوافق طبيعتهم الروحية مع مثل هذه الفلسفات الصوفية، ولكنها لا تكفي وحدها لقيادة أمة تتباين فيها طبائع البشر؛ وهو ما أدركه لاو تسو وترك غيره ليقوم به.

يقول: لاو تسو: "رجل الخير يفعل لكن دون دوافع خفية، رجل الاستقامة يفعل ولكن بدوافع خفية، رجل الشريعة يعمل وعندما لا يلقى استجابة يشمر أكمامه ويعمد إلى الإقناع بالقوة، لذا فعندما يتسى التاو تظهر الفضيلة[1]، وعندما تتسى الفضيلة يظهر عمل الخير، وعندما ينسى عمل الخير تظهر الاستقامة، وعندما تتسى الاستقامة تظهر الشريعة"[2].

ويستطرد لاو تسو في بيان نظريته بقوله: "عندما يُهمل التاو العظيم تظهر تعاليم الاستقامة وأفعال الخير، عندما يقدّر المفكرون يظهر النفاق والادعاء الفارغ، عندما تفقد الأسرة تماسكها تدعو الحاجة إلى الأولاد البارين، عندما تعم الفوضى في المملكة تدعو الحاجة إلى الوزراء المخلصين، إذا استبعدت الفقهاء والحكماء يفيد الناس أضعافًا مضاعفة، إذا ألغيت تعاليم الاستقامة وأفعال الخير يعود الناس إلى محبة بعضهم بعضًا"[3].

فمن وجهة نظر لاو تسو "عندما يسود التاو في المجتمع مثلما يسود في الكون الطبيعي تفقد التعاليم الأخلاقية ضرورتها؛ لأن

---

(1) لعل في هذه الفقرة خطأ من المترجم أو تصحيف في الأصل؛ وذلك أنه - طبقا لتعاليم لاو تسو - عندما يتبع التاو تظهر الفضيلة وليس عندما ينسى.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٨٣:

(3) لاو تسو: التاو، الفقرتان: ٤٢ : ٤٣.

مثل هذه التعاليم هي بنية مصطنعة مفروضة من الخارج. ولا تنبع من داخل الإنسان: ونحن مهما بالغنا في فرض اللوائح الأخلاقية الصارمة، فإن مثل هذه اللوائح لن تكون فعّالة إذا لم تكن المرجعيّة الأخلاقية للإنسان هي ذاته بالدرجة الأولى؛ وكما أن القطة تحب صغارها دون أن يعلمها أحد كيف تحب، كذلك ينبغي أن يكون سلوك الفرد نحو الآخرين.........ومن يحب جاره تطبيقًا لتعاليم متعارف عليها، لا يعرف شيئًا عن الحب، ومن يرعى أولاده خوفًا من القانون ومن تقوّلات الناس، لا يعرف شيئا عن الأبوّة؛ فإذا عاد الجميع إلى طبيعتهم الأصلية غير المصقولة تلمس كل واحد في صميمه ذلك المنبع الحقيقي للمحبة، وسلك بشكل تلقائي؛ فأحب دون أن يسمي ذلك حبًا، وتعاطف دون أن يسمي ذلك تعاطفًا، ورفق بالحيوان دون أن يسمي ذلك رفقًا وأطاع الوالدين دون أن يسمي ذلك طاعة... [فيكون عندئذ قد] تخلص من زينة الأخلاق ليسلكها"[1].

ومن هنا فإن الحكيم التاوي ليس معلمًا أخلاقيًا؛ وإنما هو معلم روحي.

يقول لاو تسو: "في قلة الكلام تناغم مع الطبيعة، الطبيعة لا تعبر عن نفسها بالكلمات"[2].

---

(1) فراح السواح: لاو تسو، التاو، ص ١٦٣ :١٦٥.
ويبرهن "لاو تسو" على ما ذهب إليه وذلك في حديثه مع كونفوشيوس بقوله: " إنك تتكلم عن الإنسانية والعدالة؛ لتغير طباع الناس فهل تستحم الحمامة طوال يومها لكي تصبح بيضاء؟ كلا بالطبع؛ بل هي لا تفعل شيئا من ذلك أبدا؛ لأنها بطبيعتها بيضاء؛ وهكذا شأن الناس". انظر سليمان مظهر: قصة الديانات ص ٢٢٧. وانظر طاوية - ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة ٥١.

ويقول: "لذا فإن الحكيم لا يتدخل في مسار الأشياء، ويعلم بدون كلمات"[1].

"هذا النوع من التعليم بدون كلمات يعتمد على دفع المريد إلى معرفة الحقائق عن طريق التأمل الباطني والخبرة الروحية المباشرة، بعيدًا عن التلقين المباشر ودراسة المفاهيم والمبادئ النظرية.. يقول شوانغ تسو: الشبكة تستخدم للإمساك بالسمك، خذ السمك وانس الشبكة؛ الفخ يستخدم للإمساك بالأرانب البرية، خذ الأرانب البرية وانس الفخ؛ الكلمات تستخدم لنقل الأفكار، عندما تستوعب الأفكار انس الكلمات؛ كم من الممتع التحدث إلى شخص نسي الكلمات"[2].

لكن هذه اليوتوبيا التي يحلم بها ويدعو إليها لاو تسو لا يمكننا أن نطبق بعض تعاليمها دون بعض، فلا يمكننا أن نستغني عن تعاليم الاستقامة وأفعال الخير مع إهمالنا للتاو، وهذا ما يقصده لاو تسو في رأيي من قوله السابق الذكر: "عندما يُهمل التاو العظيم تظهر تعاليم الاستقامة وأفعال الخير" أي أن تعاليم الاستقامة لا بد منها عندما يهمل التاو، وكذلك قوله: "عندما تفقد الأسرة تماسكها تدعو الحاجة إلى الأولاد البارين..... الخ"، فقوله: "تدعو الحاجة" يبين أن "لاو تسو" لا يرفض التعاليم الأخلاقية؛ ولكنه يرى أن أربابها أقل مرتبة ممن يتبع التاو ويتصرف بتلقائية أخلاقية؛ وذلك أن الناس لا يمكنهم أن يسلكو جميعا وفقا للتاو فهذه مرتبة لا يرقى إليها إلا القليل من البشر ومن ثمة كانت حاجة البشرية إلى التعاليم الأخلاقية؛ ولكن لاو تسو

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة ٦.

(2) فراس السواح: لاو تسو، التاو ص١٢٨.

تـرك التعامـل مـع أربـاب هـذه المسـتويات لغـيره مـن المشـرعين والمصـلحين، وفـي نفـس الوقـت حـاول جاهـدًا إقنـاع أكـبر عـدد ممكـن مـن النـاس بالسـلوك وفقًـا للتـاو؛ ومـن هنـا أرى أن لاو تسـو بـريء مـن تهمـة السـلبية والانعزاليـة التـي اتهمـه بهـا وللأسـف معظـم المفكرين عبر التاريخ.

أما أهـم الأخـلاق مـن وجهـة نظـر لاو تسـو فهـي ثلاثة؛ يقـول لاو تسو: "عندي ثلاثة كنـوز أحـرص عليهـا: الكنـز الأول هـو الرحمـة؛ الكنـز الثـاني هـو نكـران الـذات؛ الكنـز الثالـث هـو العـزوف عـن صدارة الناس"[1].

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٦٤.

السياسة:

لقد اعتقد لاو تسو أن النظام المثالي في الحكم هو النظام الشمولي، الذي يقوده ملك فيلسوف، أما الرعية فيجب أن تكون مسالمة ومطاوعة لأقصى درجة لهذا الحاكم[١].

فليس من حق الرعية معرفة أسرار الدولة، بل إن هذه المعرفة لا تؤدي إلا إلى فساد الدولة؛ يقول لاو تسو: "كما أنه من غير الممكن إبعاد الأسماك عن الماء دون أن تموت، كذلك من المستحيل أن تكشف أسرار الدولة أمام العامة دون أن تفسد الحال"[٢].

أما الطريقة المثلى للحكم فتقوم على التمسك بالطريق الطبيعي، والتزام مبدأ اللا فعل - ولكن بالمفهوم التاوي -[٣] إلى

---

(1) انظر: طاوية - ويكيبديا، الموسوعة الحرة.

(2) انظر: صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس، رائد الفكر الإنساني، ص ١٩.

(3) بالإضافة إلى ما سبق ذكره في المبحث السابق عن المفهوم الأخلاقي للا فعل عند لاو تسو فإن هذا المفهوم يعني في نظري هو ومفهوم "عدم التدخل في مسار الأشياء" أن فن الحياة في فلسفته أشبه بفن الملاحة لا بفن القتال، حيث يدير الربّان شراعه إلى الريح ويوجه معرفته للإفادة منها، لا لمقاومتها، وبذلك يغدو فعله جزءا من النظام الطبيعي للأشياء، لا مستقلا عنه، ولا معارضا له، من هنا فإن تعبير "اللا فعل" الذي يتردد كثيرا عند لاو تسو لا يحمل معنى سلبيا كما قد يتصور للوهلة الأولى، بل هو دعوة إلى إيجابية التناغم مع حركة الكون؛ إن اللا فعل بالمفهوم التاوي هو موقف من الحياة مثلما هو سلوك أيضا، وهو يعتمد على إدراك مبادئ وطريقة سير الأمور على مستوى الطبيعة، من أجل التعامل معها بأقل جهد ممكن ومن غير قسر أو إكراه، والتاوي في ذلك لا يستخدم ذكاءه=

أقصى حد ممكن:

يقول لاو تسو:

- "التاو ليس من شيمته الفعل، ولكنه لا يترك شيئًا بغير إتمام، إذا استطاع السادة والأمراء استيعاب ذلك فإن جموع الناس ستنتظم من تلقاء نفسها"(١).

- "لا تتدخل في مسار الأشياء يسد النظام من تلقاء نفسه"(٢).

- "المملكة وعاء مقدس، من يحاول مسها بالتعديل يجعلها خرابا، من يحكم قبضته عليها يخسرها"(٣).

- "أفضل الحكام من شابه الظل عند رعيته، يليه الحاكم الذي يحبون ويحمدون، فالذي يخافون ويرهبون، فالذي يكرهون ويحتقرون"(٤). فمحبة الرعية للحاكم تعني شعورهم بوجوده، وممارسته للفعل القصدي وذلك في مقابل اللا فعل الذي يجعله مثل الظل، فإذا اتبع الحاكم منهج التاوية في اللا فعل تأتت النتائج الإيجابية دون أن يبدو أن للحاكم يدا في ذلك، وهذا ما يطمح إليه الحاكم التاوي الذي لا يبغي من وراء السلطة توكيد ذاته وتحقيق أمجاد شخصية له. يقول لاو تسو

= التحليلي وحساباته المنطقية بقدر ما يستخدم ذكاءه الباطني غير الواعي؛ إنه مثل لاعب الجيدو الذي يستخدم قوّة الخصم ضده ويحوّل اندفاعه الهجومي إلى سقوط، وهو لا يستخدم قوته إلا عندما يختل توازن الخصم أو يصل إلى حد الإجهاد، وحتى في هذه الحالة فإنه لا يستخدم إلا الحد الأدنى من الجهد.. انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو ص١٢٥ : ١٢٧

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة ٨١.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة ١٠.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة ١٥٤.

(4) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٣٩.

عن هذا الحاكم: "فإذا أكمل مهمته وأتم عمله؛ تقول الرعية: لقد حصل ذلك من تلقاء نفسه"[1].

- "كلما كثرت التنظيمات والتقييدات في المملكة، كلما ازداد الناس فقرًا، كلما امتلك الناس أسلحة ماضية، كلما اضطربت أحوال البلاد، كلما ازداد الناس حيلة، كلما شاعت البدع، كلما كثرت القوانين والشرائع، كلما انتشر اللصوص وقطاع الطرق؛ لذا فإن الحكيم يقول: لا أقوم بأي فعل والناس يتغيرون من تلقاء ذاتهم، أميل إلى حالة السكون والناس ينصلحون من تلقاء ذاتهم، ألزم عدم التدخل، والناس يزدهرون من تلقاء ذاتهم......عندما تكون الحكومة غافلة يتسم الشعب بالبساطة؛ عندما تكون الحكومة يقظة يتسم الشعب بالخبث"[2].. وذلك لأن الناس إذا لم يشعروا بوطأة السلطة عادوا إلى طبيعتهم الأصلية الطيبة، وانتظمت أحوالهم من تلقاء ذاتها دونما حاجة إلى قوانين صارمة وعقوبات رادعة[3].. و"لاو تسو" هو صاحب العبارة المشهورة التي ترددت في الثورة الفرنسية "قل لي كم عدد القوانين والقوانين المعدلة في بلدك، وأنا أقول لك عن أنواع اللصوص والخونة فيها"[4].. ويوضح لاو تسو فكرته تلك بقوله للحاكم: "إذا لم تمنح ثقتك للناس أولا لن تستطيع

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة ٤١.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرات:١٣٢ : ١٣٤.

(3) فراس السواح: لاو تسو، التاو، ص٢٣٠.

(4) انظر - أنيس منصور: ديانات أخرى ص ٧٢.

- جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص ٣٦٦.

- محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٣٨.

الحصول على ثقتهم"[١].. وبقوله: "الصالحون من الناس أعاملهم كصالحين، والطالحون منهم أعاملهم كصالحين أيضا، وبذلك أعمل على تعميم الصلاح، أثق بمن هو أهل للثقة، كما أضع ثقتي في من هو غير أهل لها، وبذلك أعمل على تعميم الثقة"[٢].. ويبرهن لاو تسو على ما ذهب إليه بقوله: "السماء والأرض لا شفقة عندهما، ولا قسوة؛ تعامل الآلاف المؤلفة في حياد، الرجل الحكيم لا شفقة عنده ولا قسوة، يعامل الآلاف المؤلفة في حياد"[٣]. وذلك لأن الرجل الحكيم من وجهة نظر لاو تسو عليه أن يقتدي بالأرض التي بدورها تقتدي بالسماء والتي بدورها تقتدي بالتاو؛ يقول لاو تسو: "الإنسان يقتدي بالأرض، الأرض تقتدي بالسماء، السماء تقتدي بالتاو، التاو يقتدي بذاته"[٤]، أو قل: "على الإنسان الحكيم أن يقتدي بالتاو"، يقول لاو تسو: "ثبت قلبك على التاو، رجل التاو يماثل التاو"[٥].

- ويؤكد "لاو تسو" على ضرورة التزام الحكام بالحلم والأناة والرقة واللين في معالجة أمور الحكم بقوله: "حكم الدولة يشبه طبخ سمكة صغيرة"[٦]. وفي القيام بطهو سمكة صغيرة يتعين على المرء ألا يعالج أمرها بخشونة وقسوة، لأن المبالغة في المعالجة ستفسدها.

- ويقوله: "الجسد الحي رقيق ولين، وكذلك العشب والشجر

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٤٠.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١١١.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٤.

(4) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٥٨.

(5) لاو تسو: التاو، الفقرة:٥٢.

(6) لاو تسو: التاو، الفقرة ١٣٨.

النامي؛ الجسد الميت صلب وقاس، وكذلك العشب الذاوي والشجر اليابس؛ ذلك أن القسوة والصلابة من علائم الموت، واللين والرقة من علائم الحياة؛ من هنا فسلاح القوة لا ينفع، والشجر اليابس يقع تحت ضربات الفأس القوي، والضخم يقع تحت اللين والرقيق. اللين والرقيق يعلو على القوي والضخم........ لا يوجد في العالم أرق وألين من الماء؛ ومع ذلك فإنه الأقدر على مواجهة القوي والصلب؛ هذه حقيقة ناصعة لا يمكن تغييرها، كلنا يعرف أن الضعيف يفوق القوي واللين يقوى على الصلب؛ ولكننا لا نضع هذه المعرفة موضع التطبيق"[١]. ويعلل لاو تسو عدم وضع عامة الناس لهذه المعرفة موضع التطبيق بقوله: "الكلمات الصادقة تبدي تناقضا"[٢].. أي تناقضا ظاهريا مع النظرة السطحية للواقع التي ترى أن القوة والقسر هما فيصل العلاقات بين الأفراد والجماعات والممالك.

- وهذه الأفكار أكد عليها لاو تسو مرارًا، ومثل لها كثيرا في أكثر من موضع من كتابه التاو، ومن ذلك قوله: "ألين الأشياء في العالم يقوى على أقسى الأشياء في العالم،ما لا مادة له ينفذ إلى ما لا ثقوب له؛ من هنا جدوى أن لا تتدخل في مسار الأشياء"[٣].
- ويلخص لاو تسو حكمته تلك بقوله: "إذا انحنيت تغلب، وما هو بالقول الفارغ، إذا عملت به أمنت حتى النهاية"[٤].

أما آراء لاو تسو في العلاقات الدولية فيوضحها النص التالي من

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرتان ١٨٢ : ١٨٧.
(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٨٩.
(3) لاو تسو: التاو، الفقرتان: ٩٨، ٩٩.
(4) لاو تسو: التاو، الفقرة ٥٠.

كتاب التاو، يقول "لاو تسو:

- "على الدولة الكبيرة أن تكون مثل سرير النهر، حيث تلتقي كل مياه الأرض، إنها للبقية مثل المرأة، المرأة تحصلُ على بغيتها من الرجل بالسكون، عندما تلجأ المرأة إلى السكون تتخذ الوضعية السفلى، لذا، فإن الدولة الكبيرة عندما تتخذ الوضعية السفلى، تكسب الدولة الصغيرة، والدولة الصغيرة عندما تتخذ الوضعية السفلى تكسب بانتمائها إلى الدولة الكبيرة، وهكذا، فإن من يتواضع أمام الآخر يتفوق عليه، من يتخذ الوضعية السفلى أمام الآخر يتفوق عليه، إن ما تهدف إليه الدولة الكبيرة هو احتضان الجميع ورعايتهم، إن ما تصبو إليه الدولة الصغيرة هو مشاركة الآخرين والعمل معهم، وبهذه الطريقة يحصل كل على ما يرغب ويصبو، ولكن على الدولة الكبيرة أن تبدي تواضعها أولا"[١].

أما بالنسبة لموقف لاو تسو من الحرب فيوضحه النص التالي من كتاب التاو، يقول لاو تسو:

- "إذا كنت في موضع نصح للحاكم، وفق التاو؛ لا تشر عليه بإشهار السلاح وإخافة الناس، فمن شأن ذلك إثارة ردود فعل تلقائية؛ حيثما تعسكر القوات ينبت شجر الشوك، وفي أعقاب الجيوش الجرارة يذوي الحصاد، إذا كان لابد من الحرب فعجل بإنهائها، عجل في إنهائها ولا تتفاخر، عجل في إنهائها ولا تتبجح، عجل في إنهائها ولا تتغطرس، عجل في إنهائها ولا تروع الناس، فورة القوة يعقبها الوهن........... لا يوجد مجد في

(١) لاو تسو: التاو، الفقرات: ١٤٠: ١٤٢.

الانتصار، تمجيد الانتصار يعني إعلاء شأن القتل، ومن يعلي شأن القتل لا مكان له في المملكة.......... عندما يقتل العديد من الناس نبكيهم بحزن وأسى، ولهذا عند الانتصار علينا أن نقيم طقوس الحداد"[1].. وفي موضع آخر من كتاب التاو يقول لاو تسو: "عندما يرفع الطرفان السلاح في وجه بعضهما، الطرف الرابح هو الذي يدخل الحرب بأسى وحزن"[2].

ولكن إذا كان لاو تسو لا يرى فرقا بين الحرب والسلام، والموت والحياة، والحزن والفرح؛ كما سبق أن أوضحنا من قبل؛ فلماذا هو هنا يهتم بتقديم النصائح للحكام التي تحول دون استفحال ويلات الحروب من: حزن، وأسى، وقتل، ودمار؛ بل ويشير على الحكام بالحرب إذا لم يجدوا منها مفرا؟!

يمكن لبعض الدارسين أن يروا في ذلك تناقضا؛ ولبعض آخر أن يرى أنه يمكن الجمع بين الموقفين، فلاو تسو كصوفية المسلمين الذين يفرقون بين عين الحقيقة وعين الشريعة؛ فبعين الشريعة تقام الحدود، وتسد الثغور ويغزى ويجاهد، وبعين الحقيقة التي لا ترى للخلق فعلا، يكون توكل القلب، وهدوء النفس، وهذا هو المعنى الإيجابي للتوكل والذي وردت به النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ[3].

---

(1) لاو تسو: التاو: الفقرات: ٦٩: ٧١.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٦٩.

(3) ففي الحديث قال رجل: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟.. قال ﷺ: "أعقلها وتوكل" *(رواة الترمذي)*. وقال ﷺ: "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" *(رواه مسلم)*.. فالطير التي وعدنا برزق كرزقها إن توكلنا عملت: فغدت من أول النهار، وراحت في آخره؛ أي عملت يوما كاملا.. أما بعد وقوع القدر فقد قال ﷺ "أحرص على=

وكذلك لاو تسو أراه يفرق بين الفعل والمعتقد، فعلى الإنسان أن يفعل ما يحقق مصالحه العملية، أما عقيدته فشيء آخر يسلم به القلب وتسكن إليه النفس.

ويوضح ذلك شوانغ تسو بقوله: "العارفون بالتاو يقبضون على المبادئ الأساسية، من يقبض على المبادئ الأساسية يعرف كيف يتعامل مع الظروف والأحوال، من يعرف كيف يتعامل مع الظروف والأحوال لا يترك نفسه عرضة للأذى؛ عندما يمتلك الإنسان الـ "تي" الكاملة فإن النار لا تحرقه، والماء لا يغرقه، والحر والبرد لا يوجعانه، والجوارح والكواسر لا تؤذيه؛ لا أعني بذلك أن صاحب الـ "تي" يقلل من شأن هذه الأمور، ويستخف بها؛ بل أعني أنه يميز بين ما هو خطر وما هو آمن؛ ويرضى بحسن الحظ وبسوئه، ويلزم الحذر في غدوه ورواحه؛ ولهذا لا شيء يمكن أن يسبب له الأذى". ويستفيض شوانغ تسو في توضيح هذه المسألة فيقول: "عندما يسقط رجل مخمور من عربة منطلقة، قد لا يموت ولكنه يشعر ببعض الألم، ورغم أن عظامه مثل عظام بقية الناس، إلا أنه يواجه الحادث بطريقة مختلفة، ذلك أن نفسه في حالة من الأمن والطمأنينة، فهو غير واع لركوبه في العربة، وغير واع أيضا لسقوطه منها؛ والأفكار حول الموت والحياة والخوف لا تجد سبيلها إلى قلبه، من هنا فإنه لا يعاني نتيجة لاصطدامه بالأشياء؛ فإذا كان للخمرة أن تمد الإنسان بمثل هذا الإحساس بالطمأنينة، فما بالك بما يمكن للتلقائية أن تمده به؟!"[1].

=ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل قدر الله وما شاء صنع وإياك واللو فإن اللو يفتح من الشيطان" *(رواه: أحمد، ومسلم، وابن ماجه).*

(1) انظر فراس السواح: لاو تسو، التاو ص٢١٩ :٢٢٠.

وهـذا هـو معنـى قـول لاو تسـو: "مـن يـتقن فـن الحيـاة لا يواجهـه كركدن[1] أو نمر في سفر، ولا يؤذيه سـلاح فـي معركـة، إذ لا موضـع فـي جسـده لمخلـب الـوحش، ولا موضـع فـي جسـده لطعنـة سلاح، لماذا؟ لأنه لا موضع فيه، للموت منه نصيب"[2].

(1) "كركدن" أي دابة عظيمة الخلق. انظر: ابن منظور: لسان العرب ٥٣/١٣.. وهـذه اللفظـة هـي الـتي اختارهـا هـادي العلـوي فـي ترجمته لكتـاب التـاو، ص٨٠ بينمـا استخدم فراس السواح كلمة "كركون" بدلا منها، وهي كلمة لا أجد لها دلالـة فـي العربية، على أن كل ما سوى هذه الكلمة فـي هـذه الفقـرة فهـو مـن ترجمـة فراس السواح.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرتان:١١٢: ١١٣.

الفن:

يقول لاو تسو:

- "النغمة المثالية لا صوت لها، الصورة المثالية لا شكل لها"[1].

- "الألوان الخمسة تعمي بصر الإنسان، المقامات الموسيقية الخمسة تصم أذنيه، الطعوم الخمسة تفسد حاسة تذوقه، السباق والقنص يهيج قلبه، تقدير النفائس وتكديسها يصيبه بالقلق عليها؛ لذا فإن الحكيم ينكفئ نحو الداخل، ويتجنب إغواء الحواس"[2].

ومعنى ذلك أنه في رأي لاو تسو عندما يصل الإنسان إلى تحقيق التوازن الداخلي وهدوء النفس لا يغدو بحاجة إلى الفنون المختلفة: الموسيقى المصطنعة، والألوان المبهرجة؛ بل ولا إلى المتع الحسية كمذاقات الأطعمة الشهية، والرياضات العنيفة؛ وذلك أن ما تتركه الموسيقى من أحاسيس ومشاعر، والرسوم والأصباغ من انطباعات، والأطعمة من مذاقات، والرياضة العنيفة من أثر جسدي ونفسي، كلها أمور آنية عابرة؛ إذا كنت من أهل الظاهر استمتعت بها، وإذا كنت من أهل الباطن لست بحاجة إليها، ففي الصمت كل الأصوات ممكنة، وفي الأبيض كل الألوان

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٩١.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرتان:٢٨ : ٢٩.

ممكنة، وكل الحركات تؤول أخيرا إلى السكون؛ غير أن هذا لا يعني قمع الحواس عن طريق الزهد والتنسك، بل تركها حرّة تنشط بتلقائية من خلال اللا فعل، وعدم التوقف عند الحدود السطحية لما تقدمه، بل الغوص نحو الهارموني الكلي الذي تتلاشى عنده مؤثرات العالم الخارجي؛ فالتاوي لا يرفض عالم الظاهر باعتباره وهما بل يرى فيه سبيلا إلى عالم الباطن[1].

---

(١) فراح السواح: لاو تسو، التاو، ص ١٥١

الشريعة:

لقد صاغ كل من كونفوشيوس، ولاو تسو تعاليمهما بطريقة حكموية بعيدة عن الطابع الديني الذي يميز تعاليم أصحاب الرسالات الدينية، كما أن أيًا منهما لم يعتبر نفسه رسولا من قبل السماء يوصل مشيئتها إلى عالم البشر؛ بل اعتبر نفسه إنسانا يعمل على التلاؤم مع النظام الكوني الذي يعكس المشيئة التلقائية للسماء؛ فالإنسان ليس كائنا مستقلا عن الطبيعة وعن الكون، وما عليه لكي يحيا حياة متزنة سعيدة إلا أن يتلمس النظام الكوني ويسلك طريقه وفقه.. ومن هنا فإن التاوية الحكموية التي أسسها لاو تسو خلت من العبادات ومن الطقوس بشكلها المتعارف عليه؛ وفيما عدا التأمل الباطني الذي يحاول الإنسان من خلاله التواصل مع منبع الحقيقة فإن التاوي حرّ من أية فروض طقسية، أو تشريعيّة[1].

يقول لاو تسو: "اكتساب طاقة إضافية بطرق مصطنعة أدعوه نذير شر، الضبط المصطنع للتنفس أدعوه قسوة على العقل"[2].

ويقول شوانغ تسو: "أولئك الذين يطلبون طمأنينة القلوب بواسطة ضجيج الموسيقى وهرج ومرج الطقوس ويبشرون بالإحسان والصدقات وحسن المعاملة يسيئون للطبيعة الأصلية للأشياء"[3].

---

(1) انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو، ص١٨ -١٩.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٢٦.

(3) انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو، ص ١٤٧.

على أن طريق الحكمة الذي أسسه لاو تسو وطوره تلامذته من بعده قد تحول بمرور الوقت إلى طريقة دينية طقسية[1].

ففي الديانة التاوية ضروبًا من الطقوس والخدمات الدينية التي تقام للتكفير عن الخطايا، وللشفاء من الأمراض التي يعتقد أنها حدثت بسبب الخطايا.

ومن هذه الطقوس أن يقوم الكاهن بتلاوة بعض التعاويذ على الماء ثم يقدمه إلى المريض ليشربه، فإذا فشلت هذه العملية في تحقيق الشفاء يعزى الفشل إلى نقص الإيمان.

وفى الكنيسة الغربية يدفع المؤمن خمسة مكيالات من الأرز فدية مالية[2] وتدون الخطايا كما تسجل الاعترافات؛ فتعد ثلاث نسخ: توجه نسخة إلى السماء، ونسخة إلى الأرض، ونسخة إلى الماء؛ فتوضع الأولى على قمة جبل، بينما تدفن الثانية في باطن الأرض، وتغطس الثالثة في الماء.

أما القصاص "فلاو تسو" ضد قتل المجرمين عقابا لهم على جرائمهم وقد قال: إن الناس بقتلهم المجرمين لن يكونوا أحسن حالاً ولن يقضوا على الجريمة، والطريقة الوحيدة لجعل الناس خيرين صالحين هي بمعاملتهم بالرفق كل وقت[3].

---

(1) انظر تفصيلات ذلك:

- جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٤٤: ٢٤٧.
- سليمان مظهر: قصة الديانات، ص ٢٢٧:٢٢٦ - ٢٤٣: ٢٤٤.

(2) وقد ظلت الكنيسة الغربية لعدة قرون بعد ذلك تعرف على المستوى الشعبى باسم "عقيدة مكيالات الأرز الخمسة".

(3) وهو رأي يخالف الحكمة العربية القديمة: "القتل أنفى للقتل". كما يخالف ما ورد في القرآن في قوله تعالى: "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب" *البقرة: ١٧٩*. فالقصاص سبب للحياة من المنظور الإسلامي، وأنفى للقتل لدى عرب ما=

ولكل سنة عند التاويين تقويم خاص بالاحتفالات والأعياد الدينية، وبعضها إلزامي ومحدد، وبعضها الآخر يقام بناء على رغبة خاصة من أحد أعضاء الجماعة، ويلتقي جماعة المؤمنين ثلاث مرات كل عام للاحتفال بالعوامل الثلاثة الفعالة: السماء، والأرض، والماء؛ وتقام بعض الصلوات من أجل مصالح خاصة، كمولد ابن أو الشفاء من مرض أو نزول المطر أو الترقي في الرتبة أو احتفالاً بتحقيق مصالح معينة.

وازدادت بالتدريج طقوس وأعياد التاوية من حيث العدد والتعقيد ومن ذلك عيد "تعويذ الذهب"، و يخصص لتفادى كوارث الطبيعة، كالفيضانات والآثار الضارة التي يسببها الكسوف أو الخسوف وما شابه ذلك، ولضمان رخاء الأمة، وهناك عيد " تعويذ حجر اليشم" الخاص بصحة أفراد المجتمع جميعًا ورخائهم، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين، و "عيد الغبار والرماد" الذي يحتفل به كفارة من المرض، و"عيد الطلسم الأصفر" لضمان الخلاص من الجحيم للأسلاف حتى الجيل السابع.

وقدمت التاوية بوصفها دينا خلاصيا عدة طرق للمؤمن توصله إلى الجنة والخلود.

إما عن طريق التقوى والاعتراف والتكفير.

وإما عن طريق خدمات دينية خاصة يقوم بها أهل الميت وأحباؤه تمكنه من الانعتاق من العالم السفلى ودخول الجنة.

=قبل الإسلام؛ وفي العهد القديم: "كسر بكسر، وعين بعين، وسن بسن".. اللاويين: ٢٤: ٢٠.

غير أن السالك الحق كان يسعى إلى تجنب الموت تماما[1]. والعبور إلى عالم الخالدين عن طريق الانتقال إلى السماء مباشرة؛ وذلك باتباع عادات خاصة بالغذاء الصحي وتمرينات التنفس وضبط العملية الجنسية[2] وما شابه ذلك، وذلك بقصد إحلال عناصر أثيرية لا تفسد محل العناصر الغليظة الفانية في الجسد الفاني[3].

وبعد انقضاء خمسمائة سنة من وضع كتاب " الطريق لـ "لاو تسو"؛ قيل إن أحد الداويين واسمه "تشانج - تاو - لينج" قد اكتشف شرابًا يجعل الناس يحيون حياة الخلود وسمى هذا الشراب "إكسير الحياة" وشاع هذا الشراب وأسرف الأغنياء في استعماله، ويقال بأنه أودى بحياة بضع عشرات من أباطرة الصين.

كل ذلك حدث بعد وفاة "لاو تسو" ولم يكن قد مضى على

---

(1) وعلى عكس التاوية الطقسية ترفض التاوية الحكموية أساليب اليوغا الهادفة لإطالة العمر بالوسائل الاصطناعية وفي نفس الوقت تؤكد على ضرورة أن يحيا الإنسان حياة طبيعية دون خوف من الموت أو شغف بالحياة كما تؤكد على ضرورة حفظ البقاء عن طريق السير مع تيار الطبيعة وعدم معارضة التاو؛ وقد سبق بيان ذلك من قبل.

(2) بإطالتها لأقصى حد ممكن؛ لتعزيز الطاقة الحيوية لكل من الذكر والأنثى عبر امتصاص جسم الذكر للين الأنثوي المفترض توفره في الإفرازات المهبلية، وكذا امتصاص جسم الأنثى لليانج المفترض توفره في المذي (الإفرازات الذكرية التي تسبق القذف)؛ ومن هنا اهتمت التاوية بتعليم الجماع المحترس أو الجماع بلا قذف عبر الانضباط الذهني وعبر بعض الطرائق البدنية حتى يوصل الرجل المرأة إلى حالة الشبق (الإشباع الكامل) في كل ممارسة دون أن يفقد منيه. راجع www.alimbaratur.com وانظر هادي العلوي في مقدمته لترجمته لكتاب التاو، ص٤٠: ٤١. ولمزيد من التوسع عن فن الحب والجنس الصيني. انظر كتاب محمد حسان: فن التاو.

(3) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٤٤: ٣٤٦.
: أبكار السقاف: الدين في الهند والصين وإيران، ص ١٥٢.
Jhon B. Noss , Man's Religions, p. 328

ذهابه مائة عام حين وضع أحد الداويين كتابًا جديدًا قال فيه: "إن المرور من المعدن الجامد أو الصخر الصلد والمشي من خلال النار أو على سطح الماء.. كل هذه الأشياء ممكنة لمن هو على وفاق مع داو".

ثم ظهر فى عام ١٤٨ ميلادية معلم من رجال الدين كان يعرض على الناس أن يشفيهم من الأمراض كلها بطلسم بسيط يعطيه لهم مقابل خمس حفنات من الأرز، وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية، وقيل لمن لم يثمر فيهم الطلسم إن إخفاقهم لم يكن له سبب إلا ضعف إيمانهم.

وبعد عصر "لاو تسو" بعشرات السنين عندما تطورت التاوية وأصبحت ديانة دخلتها التأثيرات المختلفة من البيئات المحيطة بها؛ آمنت بالجن والشياطين ومصاصي الدماء والغيلان والتنانين.. الخ؛ وأعطت لهذا الإيمان أهميه عظمى، حتى إنهم عندما يأكلون أو يشربون؛ وقبل أن يمشى الواحد منهم أو يستريح.. لابد أن يهمس ببضع كلمات هي بمثابة تمائم تبعد كل هذه الألوان من الشرور، فإذا مشى في غابة فهو إما يغنى أو يصفر لأنه يعتقد أن الموسيقى تبقى الشياطين بعيدة عنه فلا تقترب منه؛ وشياطين الغابة تكره الموسيقى كما يكره البعوض الدخان؛ وهذا الإيمان بالأرواح الشريرة المبالغ فيه هو سر تلك الممرات الملتوية المتعرجة في بيوت الداويين التي لابد من اجتيازها قبل أن نجد أول حجرة من حجرات البيت؛ فالداوي يؤمن بأن في الإمكان منع الروح الشريرة إذا اندفعت داخلة إلى بيته، وذلك إذا وجدت في وجهها جدار يصدها.. فهي تفاجأ بالجدار أثناء اندفاعها السريع فتصطدم به وتموت؛ ومن أجل ذلك أيضا أقام الداويون الأشجار الكثيفة أمام مداخل بيوتهم؛ فإذا لم يكن لديهم القدرة على ذلك رسموا مناظر الغابات

والأشـجار الكثيفـة علـى لوحـات فـى مـداخل البيـوت.. وهـم لا يقصدون من وراء ذلك بالطبع أن تبدوا البيوت جميلة.. وإنما فعلوا ذلك حتى إذا ما جاءت الأرواح الشـريرة محاولـة دخـول البيت مـن مدخله.. اندفعت داخل الغابات المقامة أو المرسومة.. فلا يسمع بها بعد ذلك أبدا.

وكانوا يخيفون الشياطين والأرواح الشريرة بصواريخ نارية تبهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس كما كانوا يوقظون آلهتهم الجديدة بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عبادها ومطالبهم الملحة[1].

---

(١) أما في الإسلام فيقول الله تعالى: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان" *البقرة: ١٨٦* .. وفي العهد الجديد يقول بولس في رسالته إلى أهل فيلبي ٤ : ٥ " إن الرب قريب". وفي العهد القديم يقول سفر إشعياء ٥٥ : ٦ "اطلبوا الرب مدام موجودا ، ادعوه وهو قريب".

التأثير والتأثر[1]:

نستطيع تلمس التعبيرات الأولى عن مفهوم التاو من خلال كتاب الـ "إي كينغ، I.Ching" أو التغييرات[2] - أشهر كتب الحكمة الصينية - والذي يرجع تاريخه إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد على أقل تقدير[3].

فالمفاهيم التاوية ترجع إلى زمن سحيق فى الفكر الصينى ولكنها تطورت واتخذت اسمها الخاص بها على يد "لاو تسو"[4]، والتاوية فى تطورها بعد عهد "لاو تسو" أثرت كما أنها تأثرت بكل

---

(1) لمزيد من التفصيلات انظر: جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٠٦، ٢٠٧.
: مانع بن حمّاد الجهني وآخرون: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة جـ ٢ ص ٧٤٨، ٧٤٩.

(2) لقد شغل كتاب التغييرات صفوة العقول الصينية قرونًا عديدة، وساهم عدد من المفكرين الصينيين المرموقين في شرحه والعليق عليه، ومن هؤلاء كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق م)؛ وكان وراء أهم المنجزات خلال التاريخ الطويل للثقافة الصينية، وبشكل خاص فرعي الحكمة الصينية: التاوية، والكونفوشيوسية، اللذين نهلا من هذا النبع والتقت جذورهما العميقة عنده.. ولمزيد من التفصيلات عن كتاب التغييرات راجع: فراس السواح: لاو تسو، التاو ص ١٢ - ١٤.

(3) فالتقاليد الصينية ترجع الأشكال الأولى لكتاب التغييرات إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد؛ إلا أن الدراسات الحديثة ترجح تاريخًا لا يتعدى مطلع الألف الأول قبل الميلاد، أما الصيغة الأخيرة المتداولة للكتاب فهي أحدث من ذلك بكثير. انظر فراس السواح: لاو تسو، التاو ص ١٣.

(4) انظر: صادق عبد علي الركابي: لمحات عن أديان العالم ص٣٢١.

مـن الكنفوشـية، والبوذيـة إلا أن التاويـة كانـت أقـرب إلى الكونفوشية منها إلى البوذية فهما نتاج بيئة واحدة.

ولقد استمرّت تعاليم لاو تسو بكامل زخمها القديم من خلال بوذية الـ "تشي -آن" التي بدأت بالتشكل تدريجيًا منذ القرن السابع الميلادي، عن طريق التوفيق بين العناصر البوذية والعناصر التاوية الحكموية في تركيب واحد؛ وما زالت هذه الطريقة البوذية التي تحمل طابع المعلم الأول للتاوية منتشرة على نطاق واسع في اليابان والعديد من أقطار الشرق الأقصى تحت اسم بوذية الـ "زن" والتي تلقى اليوم اهتمامًا واسعًا على النطاق العالمي، وتنتشر مدارسها في أوربا وأمريكا الشمالية[1].

كما أن اعتقاد التاوية بنظرية الفيض في الخلق، ووحدة الوجود؛ كان له صدى بعيدا في الفكر الفلسفي؛ فقد ظهرت هاتان العقيدتان بألوان مختلفة في الثقافات المختلفة عبر التاريخ.

كما أن اعتقاد "لاو تسو" بأن كل شيء مركب من عنصرين كان لهذ الاعتقاد صدى ملحوظا عند "تسى تشان" الذي عاش في القرن السادس، عندما ذهب إلى أن للإنسان نفسين: واحدة سفلى تقوم بوظائف الحياة النامية وتتكون من الجسم، وأخرى عليا تتكون شيئا فشيئا بعد الميلاد بتكاثف الهواء المستنشق، أما السفلى فتتبع الجسم إلى القبر ثم لا تلبث أن تنطفئ، وأما العليا فتخلد [2].

وفي الفلسفة الحديثة والمعاصرة نجد للتاو ذكرًا في كتابات هيجل، وشوبنهاور، ووصولا إلى هايدجر (ت ١٩٧٦م) والذي طور

---

(1) فراس السواح: لاو تسو، التاو ص٢٠.

(2) انظر إبراهيم بيومي مدكور، يوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة ص ت، ث من المقدمة.

خلال النصف الثاني من حياته الفكرية نهجًا فلسفيًا يقوم على الأفكار الرئيسية (للتاو – تي – تشينج)، أو كتاب الطريق والفضيلة للاو تسو[1].

بل إننا نجد صدى للأفكار التاوية المتعلقة بالدعوة إلى التلاؤم مع النظام الكوني - والتي ترى أن الإنسان ليس كائنا مستقلا عن الطبيعة وعن الكون، وما عليه لكي يحيا حياة متزنة سعيدة إلا أن يتلمس النظام الكوني ويسلك طريقه وفقه - عند سبينوزا في قوله: "إن القوانين العامة للطبيعة ليست إلا مجرد أوامر إلهية"[2]. بل وعند كثير من المفكرين المحدثين؛ يقول د/ حسن حنفي: "إن الوحي والطبيعة شيء واحد، ولما كانت الطبيعة مستمرّة، فالوحي بهذا المعنى مستمر، والنبوة دائمة، ولكننا أنبياء يوحى إلينا من الطبيعة، وصوت الطبيعة هو صوت الله، والوحي الطبعي هو أكبر رد فعل على الوحي الرأسي، فهو وحي بلا معجزات، ولا ملائكة، ولا أنبياء؛ ومع ذلك يقرّ بالتوحيد وبالبعث وبالجزاء، مما يجعل استعمال لفظ الوحي هنا استعمالا مجازيا خالصا أي إدراك العقل القائم على الطبيعة، وبطبيعة الحال يستمر الوحي بهذا المعنى طالما أن هناك عقلا وأن هناك طبيعة"[3].

ولا يخفى تأثير التاوية على علم الطاقة الباطني الحديث بأشكاله وصوره المتعددة، ولعل أشهرها ما أصبح يعرف بالبرمجة اللغوية العصبية أو NLP[4].. يقول Dr Douglas K

---

(1) انظر: فراس السواح: لاو تسو، التاو ص ٦ من المقدمة.

(2) سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ص ٢٣٢.

(3) حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة ٤/ ١٥٢ وانظر ١٢٤: ١٢٧.

(4) انظر:

http://fikr1424.tripod.com/fikr1.htm

Ibid.,fikr3.htm =

Chung[1]: كثير من الناس يمارسون "الشي كونغ"، و"التاي شي شوان"، و"الإبر الصينية" يوميًا دون أن يعرفوا أنهم يمارسون الطاوية[2].

وعلى الصعيد السياسي نجد أن أفكار لاو تسو في النظام الشمولي للحكم - والذي يقوده ملك فيلسوف تخضع له الرعية وتطاوعه وتسالمه إلى أبعد حدّ - قد تركت أثرًا بالغًا في إحدى المدارس الفلسفية الصينية ذات التوجهات الشمولية وهي المدرسة القانونية التي أنشأها "هان فاي تسي" Han Fei Tzu (توفى ٢٣٣ ق.م)[3].

ولا يخفى ذلك الدور الإيجابي للتاوية في ازدهار النزعة التجريبية في الصين؛ لما حفلت به أدبياتها من ملاحظات وتعليقات غزيرة عن النبات، وسلوك الحيوان، والمياه والرياح؛ وذلك أن ما يهم الصوفي بالدرجة الأولى ليس الاعتقاد بالمبادئ التي قرّر الآخرون صحتها؛ بل تحصيل الخبرة المباشرة الحقة.

كما أننا نجد تشابها بين التاوية الدينية وبعض الممارسات والعقائد عند اليهود؛ ففي الديانة التاوية - كما سبق أن ذكرنا - ضروبًا من الطقوس والخدمات الدينية التي تقام للتكفير عن الخطايا، وللشفاء من الأمراض التي يعتقد أنها حدثت بسبب الخطايا؛ ونجد لذلك شبها عند اليهود في القرن الأول الميلادي؛ فكان لكل مرض مسببه من الشياطين ولذلك قال اليهود عن المسيح عليه السلام: "إن معه

= Ibid.,fikr15.htm

Ibid.,fikrd 30.htm

Ibid., fikrm.htm

(1) أستاذ علم الاجتماع بإحدى جامعات ولاية ميتشغان الأمريكية.

(2) http://fikr1424.tripod.com/fikr1.htm

(3) انظر: طاوية – ويكيبديا، الموسوعة الحرة.

جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص ٣٢٥.

بعلزبول، وإنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين"[1] أي يشفي المرضى بطرد الشياطين المتسببة في الأمراض.

كما نجد تشابها بين العقائد التاوية والتثليث المسيحي؛ وقد سبقت الإشارة إليه في مبحث الميتافيزيقا.

أما التشابه مع الإسلام فلعل أبرز مظاهره يتجلى في التشابه بين مفهوم التوكل في الإسلام والمفاهيم التاوية؛ وقد سبق بيانه في مبحث السياسة.

كما نجد تشابها كبيرا بين كثير من الحكم التاوية والحكم الصوفية الإسلامية وخاصة عند ابن عطاء الله السكندري[2]؛ ويتضح ذلك من الجدول التالي:

يقول لاوتسو	يقول ابن عطاء
"ما يخافه الآخرون عليّ أنا أيضا أن أخافه أيضًا، إنه لأمر سخيف"[3].	"أجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس"[4].
"في قلة الكلام تناغم مع الطبيعة، الطبيعة لا تعبر عن نفسها بالكلمات"[5]. "لذا فإن الحكيم لا يتدخل في مسار الأشياء، ويعلم بدون كلمات"[6].	"تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيثما صار التنوير وصل التعبير"[7].

(1) إنجيل مرقس/٣: ٢٢.

(2) ولد في الإسكندرية حوالي منتصف القرن السابع الهجري وتتلمذ على يد أبي العباس المرسي وتوفي بالقاهرة عام ٧٠٩هـ. راجع مقدمة شرح الحكم، لمحمود عبد الوهاب، ص٦.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة:٤٧.

(4) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٢٢.

(5) لاو تسو: التاو، الفقرة ٥١.

(6) لاو تسو: التاو، الفقرة ٦.

(7) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٥٩.

"جرّد نفسك من رغائبها، تعاين أسراره؛ ألزم نفسك رغائبها تعاين تجلّياته"[1].	"ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب محشوا بصور الآثار فارتحلت من حيث جاءت؛ ففرغ قلبك من الأغيار تملأك المعارف والأسرار"[2].
"الحكيم يضع نفسه في المؤخّرة ليجدها في المقدمة؛ عندما ينسى نفسه يجد نفسه، لأنه لا يشعر بنفسه فهو قادر على تحقيق ذاته"[3]. "الحكيم.........لا يظهر نفسه ولذا يبدو للنظر.....لقد قال القدماء: إذا انحنيت تغلب، وما هو بالقول الفارغ، إذا عملت به أمنت حتى النهاية"[4].	"ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه"[5]. "تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه؛ وتحقق بذلك يمدك بعزته، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته، وتحقق بضعفك يمدّك بقوته وحوله"[6].
"ثبّت قلبك على جوهر الفراغ"[7]. "تأمل الفراغ المطلق، ألبث في سكون"[8]. "سد النوافذ، غلّق الأبواب، وإلى آخر أيامك لن تتضب؛ افتح النوافذ، شرّع الأبواب، تزد في متاعبك، وإلى آخر أيامك لن تعرف الخلاص"[9].	"ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة"[10].

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٣٥.
(2) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٧٥.
(3) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٩.
(4) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٥٠، وانظر الفقرات: ٥٥، ١٢٩.
(5) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٧.
(6) السابق: ص١٥٥.
(7) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٦.
(8) لاو تسو: التاو، الفقرة:٣٧.
(9) لاو تسو: التاو، الفقرة:١١٨.
(10) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص١٨.

"ثبت قلبك على الصورة العظمى يأت العالم إليك، يأت الجميع إليك والكل في سلام"[1].	"الكائن في الكون ولم تفتح له ميادين الغيب مسجون بمحيطاته، محصور في هيكل ذاته؛ وأنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن فإذا شهدته كانت الأكوان معك"[2].
"التاو ليس من شيمته الفعل، ولكنه لا يترك شيئًا بغير إتمام، إذا استطاع السادة والأمراء استيعاب ذلك فإن جموع الناس ستنتظم من تلقاء نفسها"[3]. "لا تتدخل في مسار الأشياء يسد النظام من تلقاء نفسه"[4]. "المملكة وعاء مقدس، من يحاول مسها بالتعديل يجعلها خرابا، من يحكم قبضته عليها يخسرها"[5].	"الغافل إذا أصبح نظر ماذا يفعل؟ والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به"[6]. "ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله تعالى فيه"[7]. "أرح نفسك من التدبير فما قام به غيرك لا تقم به أنت بنفسك"[8].
الاستحسان والتقريع أمران مزعجان........ لأن الاستحسان ما إن	"متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فانظر إلى علم الله

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة:٧٧.

(2) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ٢٠٦.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة ٨١.

(4) لاو تسو: التاو، الفقرة ١٠، وانظر الفقرة:١٣٢.

(5) لاو تسو: التاو، الفقرة ١٥٤.

(6) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص١٠٦.

(7) السابق: ص٢٧.

(8) السابق: ص ١١.

"يمنح حتى يتبعه تفريع، لا هذا يدوم ولا ذاك"(1). "إذا اتبعت طريق السماء تبذل العمل ولا تقتضي عرفانًا"(2).	فيك، فإن كان لا ينفعك علمه فيك فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم"(3). "المؤمن يشغله الثناء على الله عن أن يكون لنفسه شاكرًا؛ وتشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكرًا"(4).
"تخلص من معظم الرغبات"(5). "لا يوجد خطيئة تفوق امتلاك الرغبات"(6). "من هنا فإن الحكيم يرغب في أن لا يرغب"(7). "من هنا فإن الحكيم.... لا يخسر شيئًا؛ لأنه لا يحكم قبضته على شيء"(8). "إذا استطعت التحرر من الرغبات والبقاء ساكنًا فإن المملكة ستعيش بسلام من تلقاء ذاتها"(9). "أعرف القناعة والرضا لا يخب بك المسعى"(10).	"ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدا، والله لا يحب أن تكون لغيره عبدا"(11). "أنت حرٌ مما أنت عنه آيس وعبد لما أنت فيه طامع"(12). "من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك، وليقل ما تفرح به يقل ما تحزن عليه"(13).

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٣٠.
(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١١٧.
(3) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٩٥.
(4) السابق: ص ٢٠١.
(5) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٤٤.
(6) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٠٥.
(7) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٥٦.
(8) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٥٤.
(9) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٨١.
(10) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٠٠.
(11) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص١٧٨.
(12) السابق. ص٦٤.
(13) السابق: ص ١٩.

"رجل الفضيلة لا يشعر بفضيلته، ولذا فإنه رجل فاضل، البعيد عن الفضيلة مشغول بها على الدوام، ولذا فإنه رجل غير فاضل، رجل الفضيلة لا يفعل، ولكنه لا يترك شيئا بحاجة إلى إتمام، البعيد عن الفضيلة يفعل، ومع ذلك يترك أمورا بحاجة إلى إتمام، "[1].	"من أثبت لنفسه تواضعًا فهو المتكبر حقًا، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة، فمتى أثبتّ لنفسك تواضعًا فأنت المتكبر؛ وليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع"[2]. "لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده، ويتحقّر عندك وجوده"[3].

كما نجد تشابها في استثناء الجنس من مفهوم الزهد بين التاوية الدينية وكثير من زهاد المسلمين[4].

---

(1) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٨٢. وسيأتي شرح لهذه الفقرة في مبحث التقييم والتقويم.. وانظر الفقرات:٤٢، ٤٣، ٨٣.

(2) ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، ص ١٩٩.

(3) السابق: ص٥٨.

(4) انظر: هادي العلوي في شرحه لكتاب التاو، ص ٤١: ٤٠.. وانظر ابن عربي: فصوص الحكم، ص٢١٦: ٢٢٠.

أهم الفرق[1]:

بعد أن توفى " لاو تسو" نشأ عن مذهبه مذهبان: المذهب التاوي الفلسفي، والمذهب التاوي الديني، وكلاهما نشأ من " تاو" وهو عنوان كتابه الذى أشرنا إليه.

فأما المذهب التاوي الفلسفي فقد انقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام: فبعضهم تخصص فى دراسة المعرفة، وما يمكن أن يحصله الإنسان منها، وهل هذا المتحصل مفيد، أو غير مفيد؛ والبعض الآخر اقتصر على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار – وبالطبع ليس بغرض تسخيرها؛ وإنما بهدف معرفة القوانين الطبيعية للاستعانة بها كمعيار نتوافق معه ولا نتغلب عليه - ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذي أسلفناه، وهو القائل بأن التاو غير قابل للمدركية البشرية فقد كان من الطبعي أن يعلنوا أن العقل الإنساني قاصر عن إدراك المطلق، وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة.

وأما الفريق الثاني من تلاميذ هذا الحكيم لما يئسوا من إدراك العقل البشرى لكنه " التاو" لم يجدوا بدًا من أن يعلنوا أن ما لم يدرك بالعقل يدرك بواسطة السحر، ومن هنا نشأ مذهب "التاوية الديني" وهو مزيج من قواعد سحرية وتعاليم صوفية.

---

(1) انظر: محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢٤٠ : ٢٤١.
: أبكار السقاف: الدين في الهند والصين وإيران، ص ١٢٤ :١٢٥.

الانتشار ومواقع النفوذ[1]:

كان انتشار الطاوية الأكبر في الريف الصيني بعيدا عن المدن والعواصم فقد كانت الطاوية ديانة شعبية بينما كانت الكونفوشية هي ديانة الدولة الرسمية في الصين إثناء حكم أسرة هان (٢٠٢ ق.م إلى ٢٢٠ بعد الميلاد).

وعلى مدى هذه القرون الأربعة حل محل وحدة أسرة "هان" فترة من التمزق والتفكك عرفت بفترة الممالك الثلاث والأسر الست واستمر التفكك حتى عادت الصين إلى الوحدة مرة أخرى في عهد أسرتى "سوى" "Sui" و "تانج" "T'ang".

ومع انهيار سلطة أسر "هان" وسقوط الصين في التفكك السياسى فقدت الكونفوشية مكانتها المرموقة.

وفى هذه التربة الحرة الطليقة ازدهرت الكنيسة الطاوية.

واستمرت في الازدهار كذلك في عهد أسرة "سوى" "Sui" وبداية عهد أسرة "تانج "T'ang" ولعل ذلك كان بسبب "حجر

---

(1) انظر: تفصيلات ذلك:

- جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٦٣.
- مانع بن حماد الجهني وآخرون: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ج٢ ص ٧٤٩.
- صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، هامش ص ١٨٢.
- صادق عبد علي الركابي: لمحات عن أديان العالم ص ٣٤٢.

- http://en.wikipedia.org/wiki/Taoism

الفلاسفة"[1] الذي قام الكيميائيون التاويون بمحاولات إعداده.

ورغم وصول التاوية إلى مستوى التعاطف الرسمى فى ذلك العصر إلا أنها بعد ذلك بدأت فى الانحسار الطويل البطىء إلى أن وصلت إلى حالة الاحتضار فى العصور الحديثة.

وفى عام ١٩٥٨م أعلن أن ثلاثين ألفًا من الكهنة الطاويين لا يزالون ناشطين فى مختلف أنحاء الصين، ومعلوم أن الثقافة الصينية ما تزال الطاوية حية فيها إلى الآن.

وفى عام ١٩٦٠م انبعثت هذه الديانة من جديد وظهرت المعابد الطاوية الضخمة كمعبد "شهنان" غرب "تايبيه" والذي يضم تمثال "لو يونغ ين " الذى تقمصته روح إله الطاو كما يزعمون.

وفى عام ١٩٨٠م أعيد إصلاح أكبر معبد تاوي في بكين على نفقة الحكومة.

ويقدر عدد أتباع هذه الديانة اليوم في الصين وحدها بحوالي ثلاثة وأربعين مليونًا، ويبلغ عدد التاويين في العالم حوالي خمسين مليونا.

وتوجد الآن فئات طاوية فى بعض نواحي ماليزيا وبينيانغ وسنغافورة وبانكوك؛ وأعداد قليلة في العالم الغربي.

أما تايوان فهى أهم ملجأ للطاوية فى القرن العشرين بسبب الهجرة الطاوية إليها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

أما في كل من اليابان وفيتنام وكوريا فقد اقتصر التأثير التاوي على الجانب الثقافي فقط؛ وتعتبر اليابان من أوسع البلاد علمًا بالطاوية فى أيامنا الحالية.

---

(1) مادة كان قدماء الكيميائيين يعتقدون أنها قادرة على أن تحيل المعادن الخسيسة إلى ذهب.

تقييم وتقويم:

إن التاوية والكونفوشية كانتا فى الأصل مذاهب فلسفية خالية من أى عنصر من عناصر العقيدة وتعتنقها مدارس، وأفراد، ولم يشكلا مؤسسة، ولم يكن لهما طابع دينى خاص.

ثم أصبحا بعد ذلك يمثلان مع البوذية التى اصطبغت بالصبغة الصينية بعد وفودها من الهند - الأديان الصينية الثلاثة الكبرى.

ويرغم ذلك فإن كلا من التاوية والكونفوشية بوصفهما ديانتين تمثلان عند العقل الصينى "شياو" "Chiao" (أى تعاليم) وهذه التعاليم ليست تعاليم دينية على سبيل الحصر أو التخصيص، رغم أنها تتعلق بأمور كثيرة مما ننظر إليه نحن على أنه يخص الدين.

لقد نظر إلى كتابات مؤسسى التاوية والكونفوشية على أنها جزء من التراث الثقافى الجامع للصينيين.

وفى جزء كبير من تاريخ الصين اعتقد الصينيون أنفسهم أن التاوية والكونفوشية مظهران أصيلان للروح القومى، لا مجرد أنواع من الإيمان الدينى الذى يدعو إلى الهداية ويتطلب الانتماء والالتزام الشخصى[1].

كما يلاحظ أن هذه الديانات أو الأنظمة الثلاثة هي إلى حد كبير أنظمة أخلاقية؛ وهي جميعًا مصبوغة بالروح الصينية؛ ولذلك فبالرغم

(١) انظر: جفري بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٢٠٦: ٢٠٧.

من الاختلافات فيما بينها فهي لا تمنع الاشتراك، فمن الممكن قبول عناصر من هذه الأديان الثلاثة فى ديانة الشخص الواحد[1]؛

يقول "سوزوكى" الياباني فى كتابه: "تاريخ الفلسفة الصينية القديمة" ما نصه: "إذا كان الدين ممثلاً فى اليهود والتنسك فى الهنود والتفلسف فى الإغريق، فإن الأخلاق هى الثقافة الروحية التى التقت فى امبراطورية الوسط (أى الصين) بممثليها الحقيقيين وبنموها المنظم"[2].

وقد تعرضت التاوية لسوء فهم عميق عبر تاريخها؛ فدوما كان هناك من يعتقد أنها تقوم على إهمال متطلبات المجتمع المحيط، والبحث فقط عن الأشياء التي تمكن الإنسان من أن يتناغم مع المبادئ المؤسسة للكون أو "تاو".

ومن هؤلاء "مينغ تسي" - من أتباع المدرسة الكونفشيوسية – والذي وصف "تشوانغ تسو"– الرجل الثاني بعد "لاو تسو" – وأتباعه، بأنه هو وأتباعه: "لن يضحوا ولو بشعرة إذا توجب ذلك لإنقاذ العالم"[3].

بل إن هذا الفهم الخاطئ للتلقائية الشاملة لجميع الأشياء الذي تحدث عنه لاو تسو هو سبب اختلاق تلك القصة الشهيرة التي كثيرا ما تحكى عن لاو تسو من أنه وقف ذات مرة أمام شجرة عرضت له في طريقة يدفعها بيديه لعلها تفسح له الطريق دون أن

---

(1) انظر: C. H. John Lewis: Religion of The World Made Simple, p52
Titterton: Five Great Non Christian Religions, p. 95
: صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، ص ٢٥.

(2) انظر: محمد غلاب: الفلسفة الشرقية ص ٢١٠.
: صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس، رائد الفكر الإنساني، ص ١٢.

(3) طاوية – ويكيبديا، الموسوعة الحرة.

يحاول تفاديها وتجمع الناس حوله ثم سحبوه بعيدًا عنها ليقف أمام شجرة أخرى حتى الصباح[1]؛ وهي قصة لا تتوافق في رأيي مع التاوية كما فهمتها، ففي ضوء هذه القصة المزعومة نجد أن لاو تسو قد اعتبر أن التلقائية تنحصر في مجرد دفع الشجرة بيده دون محاولة تفاديها؛ مع أن في مفاداة الشجرة تلقائية طبعية أشار إليها لاو تسو كثيرا ومثّل لها بالتلقائية التي يتفادى بها النهر العوائق ليمر ولا يتوقف؛ يقول لاو تسو: "الخير الأسمى يشبه الماء، الماء يسقي ألوف الحيوانات بلا جهد، يرافقها في أماكن لا يرغب أحد في ارتيادها، وهو في ذلك يشبه التاو"[2].

وقد سبق إيضاح مفهوم اللا فعل عند لاو تسو: مرّة في مبحث الأخلاق، ومرّة في مبحث السياسة.

ويؤكد شوانغ تسو على إيجابية التاوية ويدحض ما يشاع عنها من سلبية بقوله: "لم يحدث قط أن شخصًا جال في العالم المتعالي حتى أقصاه، ومع ذلك لم يكن متناغمًا على نحو صامت مع العالم الدنيوي، كما لم يحدث قط أن كان هناك شخص متناغم على نحو صامت مع العالم الدنيوي، ومع ذلك لم يطف بالعالم المتعالي. ومن هنا فإن الحكيم يطوف دومًا في العالم المتعالي لكي يوسع نطاق العالم الدنيوي"[3].

وليس أدل على بطلان ما يشاع عن التاوية من سلبية من أن آخر عبارة تختم كتاب التاو - في ترجمة هادي العلوي - يقول فيها

---

(1) انظر: أنيس منصور: ديانات أخرى، ص ٦٧..

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ٢٠.

(3) جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ص ٢٧٧.

لاو تسو: "تاو الحكيم هو العمل دون كد"[1].

ويبدو أن لاو تسو كان على وعي بسوء الفهم الذي تعرضت له فلسفته فقال آسفا: "كلماتي سهلة الفهم والتطبيق، ومع ذلك لا أحد يفهمها أو يعمل بها"[2].. وعلل ذلك بقوله: "كلمة الحق ليست جميلة، الكلمة الجميلة ليست حقيقية، الكلمة المزخرفة ليست مقنعة، الكلمة المقنعة غير مزخرفة"[3].

إلا أن التاوية تظل قاصرة في رأيي عن تقديم التصور العقدي الصحيح الذي تنشده الفطرة الإنسانية ولا تسكن إلا إليه؛ وهو ما يتبين بشكل جلي من المقارنة مع الإسلام؛ كما أنها لا تدعي صلاحية للأخذ بيد عامة البشر في المجال الأخلاقي وتصرح بأنها فلسفة الصفوة ليس إلا.

---

(1) لاو تزو: تاو تي تشنغ، ترجمة هادي العلوي، ص٩٨.

(2) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٧٠.

(3) لاو تسو: التاو، الفقرة: ١٩٤.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

مراجع عربية ومترجمة:

- ابكار السقاف: الدين في الهند والصين وإيران، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
- إمام عبد الفتاح إمام: معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولى، القاهرة، د.ت.
- جفرى بارندر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولى، ط٢، القاهرة، ١٩٩٦.
- جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة: إمام عبد الفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٩٩، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٥م. تم الحصول عليه من موقع مكتبة المدني الإلكترونية http://www.almdni.com
- حسن حنفي: من العقيدة إلى الثورة (النبوة والمعاد)، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ت.
- سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم: حسن حنفي، مراجعة: فؤاد زكريا، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٩١م.
- سليمان مظهر: قصة الديانات، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٥.
- سهيل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل، دار الكتاب العربي، ط١، دمشق، ١٩٩٧م.

- صادق عبد علي الركابي: لمحات عن أديان العالم، مكتبة مدبولي، ط١، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- صفاء عبد السلام جعفر: السؤال عن الأصل، دراسة أنطولوجية في فلسفة الطريق بين التاوية وهايدجر، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن عطاء الله السكندري: الحكم العطائية، شرح وتحقيق: محمود عبد الوهاب عبد المنعم، جمعية ابن عطاء الله السكندري، القاهرة، د.ت.
- لاو تزو: تاو تي تشنغ، ترجمة ودراسة: هادي العلوي، راجع الترجمة: سامي مسلم، دار ابن رشد، ط١، بيروت، ١٩٨١م.
- "لاو تسو": كتاب" التاو تى تشينغ" إنجيل الحكمة التاوية في الصين ترجمة وشرح وتعليق: فراس السواح؛ دار علاء الدين، ط١، دمشق؛ ١٩٩٨م.
- مانع بن حماد الجهنى وآخرون: الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية للطباعة و النشر و التوزيع، ط٣، السعودية ١٤١٨هـ.
- محمد حسان: فن التاو (فن الحب والجنس الصينى) الحرية للنشر والتوزيع ط١، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- محمد عثمان الخشت: الأديان: تأويل نقدى لفلسفة الدين عند هيجل، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٥.
- محمد غلاب: الفلسفة الشرقية، القاهرة، ١٩٣٨.
- محيى الدين بن عربي: فصوص الحكم، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، ط١، د.ت.

- هيجل: تاريخ الفلسفة، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٧.

: محاضرات في فلسفة الدين، الحلقة الثالثة، العبادة وديانة الطبيعة، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الكلمة، ط١، القاهرة ٢٠٠٣م.

مراجع أجنبية:

- John B. Noss, Man's Religions, The Macmillan Company, New York Copyright 1949.
- John Lewis, The Religions of The World Made Simple, Made Simple Books , Doubleday &Company Inc. U.S.A. Copyright ©.
- C. H. Titterton, Five Great Non Christian Religions, The Inter – Varsity Fellowship of Evangelical Unions London , 1936.

مواقع على الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت):

www.alimbaratur.com

http://ar.wikipedia.org

http://en.wikipedia.org/wiki/taoism

http://fikr1424.tripod.com/fikr1.htm

http://fikr1424.tripod.com/fikr1.htm

http://fikr1424.tripod.com/fikr3.htm

http://fikr1424.tripod.com/fikr15.htm

http://fikr1424.tripod.com/fikrd 30.htm

http://fikr1424.tripod.com/fikrm.htm

الفهرس

المؤلف

د. جمال الحسيني أبو فرحة

- مدرس علم الكلام والمذاهب والأديان بجامعة قناة السويس.

◆ **صدر له:**

- ميزان النبوة: المعجزة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- النبي الخاتم، هل وجد؟ ومن يكون؟ مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ط٢، ٢٠٠٧.
- الخروج على الحاكم في الفكر السياسي الإسلامي، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٤، ط٢، ٢٠٠٧.
- الكنيسة المارونية: الواقع والتاريخ، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٤.
- حقيقة الكتاب المقدس، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٦.
- أمة الإسلام (البلاليين)، دراسة تحليلية نقدية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٧.
- تأملات (دينية – فلسفية – سياسية – لغوية)، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠٠٧.
- التاو: ديانة وفلسفة، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ط١، ٢٠١٠.

Email: gamalabufarha@yahoo.com

من قائمة الإصدارات

إسلاميات — فكر ديني

نظرة الغرب إلى الإسلام	ترجمة: د. على فهمى خشيم
المسلمون في الغرب بين تناقضات الواقع وتحديات المستقبل	التجانى بولعوالى
نظام الحكم في الإسلام	د.صابر محمد دياب
العروبة والإسلام	مجدى رياض
المقدس وغير المقدس في الإسلام	مجدى رياض
الإسلام والغرب الأمريكى	محمد إبراهيم مبروك
الإسلام النفعى(الإسلام الذى تريده أمريكا)	محمد إبراهيم مبروك
الإسلاميون الجدد ..إلى أين؟	أسامة عبد الحق
عبد الرحمن بدوى فيلسوف الوجودية الهارب إلى الإسلام	د. سعيد اللاوندى
الإخوان والسلطة (تحالفات واهية وصراعات دامية)	حمادة إمام
الإخوان والعسكر (قصة الجبهة الإسلامية والسلطة في السودان)	حيدر طه
الخروج على الحاكم في الفكر السياسى الإسلامى	د. جمال الحسينى أبو فرحة
الكلمة والسيف "محنة الرأى في تاريخ المسلمين"	صالح الوردانى
الشيعة الإسماعيلية الدعوة العقيدة والأثر	خالد السيوطى
مدعو النبوة	جمال عبد الرحيم
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة: سيد حسان
النبى الخاتم، هل وجد؟ ومن يكون؟	د. جمال الحسينى أبو فرحة
حقيقة الكتاب المقدس	د.جمال الحسينى أبو فرحة
عيسى المسيح والتوحيد	محمد عطا الرحيم، ترجمة: عادل حامد
الكون يشهد لله بصفاته	هالة أحمد فؤاد
إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم	د. سعيد اللاوندى
هل في القرآن أعجمى؟	د. على فهمى خشيم
تفسير الأحلام من القرآن الكريم	عبد الرحمن حافظ

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية؛ رواية.. قصة.. دراسات ونقد وكتب متنوعة: سياسية، قومية، دينية، معارف عامة، تراث، أطفال.
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة فى الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز